رواء
مجلة فكرية دورية

• تاريخ حزب البعث في سوريا: الاستيلاء والأفول
• تحديات تواجه المشهد الدعوي الشامي
• العلاقات الدولية (الإيرانية الإقليمية)، من منظور المفكّر نبيل خليفة
• بين تعظيم حجاب القلب وتهوين حجاب البدن: شبهات ومغالطات
• جوهر الصلاة وثمراتها

الدولة القوية..
تبدأ من المجتمع القوي

34
العدد الرابع والثلاثون
صفر ١٤٤٧هـ - آب / أغسطس ٢٠٢٥م

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

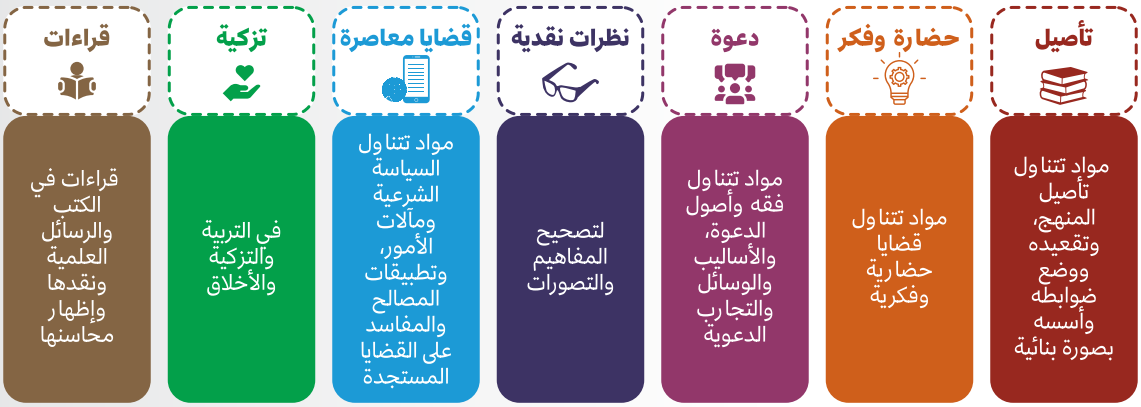

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

١ الدولة القوية.. تبدأ من المجتمع القوي ٢
الافتتاحية

٢ تاريخ حزب البعث في سوريا: الاستيلاء والأفول ٩
أ. حسام طرشة

٣ تحديات تواجه المشهد الدعوي الشامي ١٨
د. فيصل البعداني

٤ العلاقات الدولية (الإيرانية الإقليمية)، من منظور المفكّر نبيل خليفة ٢٣
د. محمد بن عبد الله السلومي

٥ خطأ تخصيص مراتب إنكار المنكر بالوظائف ٢٩
د. عبد المعين الطلفاح

٦ بين تعظيم حجاب القلب وتهوين حجاب البدن: شبهات ومغالطات ٣٣
أ. هدى عبد الرحمن النمر

٧ جوهر الصلاة وثمراتها ٤١
د. عمر النشيواتي

٨ الإسلام بين ضغط التغريب وخلود التشريع ٤٨
أ. كمال أنمار أحمد

٩ الخوف من الإسلام: بين الواقع والادّعاء ٥٥
أ. هند معوض

١٠ قراءة في كتاب: «النسوية الإسلامية، بين الانسلاخ والتلفيق» للدكتور سامي عامري ٦١
أ. ياسمين الحايك

١٢ بأقلام القراء ٧٠
مجموعة من القراء

١٣ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ٧٢
د.خير الله طالب

رواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

هيئة الشام الإسلامية

أسرة التحرير

رئيس التحرير
د. عماد الدين خيتي

سكرتير التحرير
أ. محمود درمش

فريق التحرير
أ. جهاد خيتي
أ. عبد الملك الصالح
أ. أحمد خالد أحمد

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

rawaamagazine

كلمة التحرير

الدولة القوية.. تبدأ من المجتمع القوي

للدولة ركائز أساسية لا تقوم بدونها، وهي: الشعب، والسلطة الحاكمة، بالإضافة إلى الإقليم الجغرافي، والسيادة من ناحية الاستقلال التام في إدارة الشؤون الداخلية والخارجية[1]؛ حتى تكون دولة قوية قادرة على القيام بأعمالها، وتقود النهوض والازدهار، ومواجهة المخاطر المحدقة بها.

وتتفاوت القراءات في اعتبار مقياس قوة الدولة وصلابتها، فيذهب البعض إلى أنها القوة الاقتصادية، أو العسكرية، أو مدى التقدم العلمي والتقني الذي تشهده، أو تماسك مؤسساتها ودوائرها المختلفة وجودة أنظمتها، أو قوة دعمها الخارجي والاعتراف بها من دول العالم، أو مجموعة مركبة من هذه العناصر.

لكن الوحي والآثار والتاريخ ودراسة عوامل ازدهار الدول والحضارات تخبرنا أن العديد من الدول قد انهارت وهي في أوج قوتها العسكرية، أو الاقتصادية، أو تقدمها المادي.. كالحضارة اليونانية، والرومانية، وفي العصر الحديث الاتحاد السوفييتي، وأن العديد من أنظمة الحكم قد فشل وسقط مع توفر الدعم الخارجي والاعتراف الدولي.

فما هو الركن الأشد خطورة والأكثر أهمية وحضورًا في قوة الدول والحضارات وبقائها؟

إنه قوة مجتمعها، وصلابته وتماسكه الداخلي، وفاعليته.

(١) حيث تعرف الدولة في الاصطلاح السياسي بأنها: كيان سياسي ذو سيادة يُمارس السلطة على إقليم محدد (أرض) ويضم سكانًا دائمين، وله نظام حكم يُدير شؤونه، ويتمتع بالاعتراف القانوني والسياسي داخليًا وخارجيًا.

> **اهتمام الأنبياء بالمجتمعات وتربيتها كان استراتيجية فعالة لبناء المجتمع السليم الذي يسبق النهوض ويقوده، فكانوا يبدؤون بتصحيح الأفكار التي تشكل تصورات الناس، مع بذل الجهد في إصلاح المجتمعات وتربيتها، وغرس بذور التماسك بين أفرادها، ومحاربة مظاهر فسادها وأسباب التنافر بين أفرادها**

الأنبياء عليهم السلام والمجتمعات:

لم يكن اهتمام الأنبياء ببناء المجتمعات وتربيتها من قبيل المصادفة، أو من قبيل فعل الممكن والمتاح، بل كانت استراتيجية فعالة لبناء المجتمع السليم الذي يسبق النهوض ويقوده، فكانوا يبدؤون بتصحيح الأفكار التي تشكل تصورات الناس وأسس التفكير لديهم، مع الجهد في إصلاح المجتمعات وتربيتها، وغرس بذور التماسك فيها، ومحاربة مظاهر فسادها وأسباب التنافر بين أفرادها.

فكانت رسالة نبي الله لوط في إصلاح الأخلاق واستعادة الفطرة بالنهي عن الفاحشة وقطع الطريق وفعل المنكرات، ورسالة نبي الله شعيب في إصلاح الاقتصاد والنهي عن تطفيف الكيل والإفساد في الأرض، ثم كانت دعوة نبينا ﷺ جامعة لكل خير جاء به الأنبياء؛ يدعو إلى مكارم الأخلاق وإصلاح النفوس، إلى جانب عبادة الله تعالى وحده ونبذ الشرك، قال النبي ﷺ: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[1]، وقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في حواره مع النجاشي: (أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام)[2].

وقد دأب النبي ﷺ في كل من مكة والمدينة على تأسيس نواة قيادة مجتمعية واعية من عرفاء الناس ومقدميهم ومطاعيهم؛ ففي مكة أنشأ مجتمع دار الأرقم الذي كان مركز إعداد وتدريب الكوادر وبناء الركيزة الأولى للمجتمع المسلم، وقبل هجرته إلى المدينة حرص على أن يؤسس نواة مجتمعية تكون هي أساس بناء الدولة المسلمة في بيعتي العقبة[3]، ثم عقد وثيقة المدينة بين سكانها المسلمين وغير المسلمين لتقوية وتماسك المجتمع فتستقيم أمور الدولة لاحقًا.

وبناء على النظر في سيرة الأنبياء، واستقراء سنن قيام الأمم وصعودها نستطيع القول: إن الأساس الذي تقوم عليه الدول والحضارات هو المجتمع؛ فالمجتمع سابق لوجود الدولة تاريخيًا، وهو أساس بناء السلطة ووجودها وهي منبثقة عنه وتعمل لمصلحته؛ والمجتمع يستطيع أن يبني دولة ويحافظ عليها، وإذا سقطت أو ضعفت فإنه يقيم غيرها. لكن الدولة لا تستطيع إيجاد مجتمع، بل إن حاولت تهميشه أو العبث به فإنه سرعان ما يثور عليها وينفضُّ عنها، كما حصل في الثورة الأوروبية، والبلدان الشيوعية، وفي الثورات العربية، ويحصل بشكل أو آخر في الدول الغربية.

> **الأساس الذي تقوم عليه الدول والحضارات هو المجتمع؛ فالمجتمع سابق لوجود الدولة تاريخيًا، وهو أساس بناء السلطة ووجودها وهي منبثقة عنه وتعمل لمصلحته؛ والمجتمع يستطيع أن يبني دولة ويحافظ عليها، وإذا سقطت أو ضعفت فإنه يقيم غيرها**

كيف عمل الإسلام على بناء مجتمع قوي فاعل؟

يقوم تعامل الإسلام مع المجتمع على منظومة من المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والتشريعية، ويمكن تحديد ثلاث اتجاهات لها:

١. تكافل المجتمع وتضامنه:

من خلال الأعمال التي تقوي الضعفاء وترفع من سوية المنكسرين، مثل سنن عيادة المريض، وتعزية أهل الميت، وكفالة اليتيم، والقيام على حاجات الأرامل، والصدقة على الفقراء والمساكين، وتزويج الأيامى، وعتق الرقاب، والوضع عن

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والأخلاق متعددة، ومنها أخلاق الحاكم والمحكوم وما يُعرف اليوم بـ (الأخلاق السياسية).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤٠).

(٣) بيعتا العقبة: الأولى في العام الثاني عشر للبعثة، والثانية في العام الثالث عشر للبعثة، وكانتا في مكة، بين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من أهل المدينة، وكانت بيعة العقبة الثانية تتضمن في بنودها السمع والطاعة ونصرة النبي عليه الصلاة والسلام.

المعسرين، ومواساة الحزانى، فكلها ترفع من سوية الفئات المنكسرة بسبب معنوي أو مادي، فيعودون إلى توازنهم وإنتاجيتهم، ولا يبقون أسرى لأوجاعهم وآلامهم، غير منتجين ولا مشاركين.

٢. نشر الأفعال الإيجابية والنافعة:

في جملة من الأفعال والأقوال التي تعزز الإيجابية المغذية للثقة بين أفراد المجتمع حتى وإن كانوا لا يعرفون بعضهم، وهي تزداد فضلاً وأهمية كلما كانوا أقرب لبعضهم كالجيران والأقارب والأرحام وأفراد العائلة الواحدة؛ فصلاة الجماعة، وإلقاء السلام وإطعام الطعام وإغاثة الملهوف وإماطة الأذى وبذل النصح والكلمة الطيبة وصلة الرحم، والتزاور والتهادي، والوفاء بالعهد والصدق في الحديث وفي الوعد، ... كلها تعزز من تماسك المجتمع وتواصله، وانتشار الثقة والتواصل بين أفراده.

٣. بناء المجتمع القوي الفعال:

ويكون هذا الاتجاه ببناء روح الإيجابية والمبادرة، لينتقل المجتمع لدور الشراكة مع السلطة والعمل وعدم انتظار الأوامر، من مطالبة الجميع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل بحسب استطاعته، مرورًا بنصرة المسلم لأخيه: إن كان مظلومًا وقف معه حتى يأخذ حقه، وإن كان ظالمًا منعه من الظلم، مرورًا بجعل اختيار الحاكم والمشاركة الحقيقية في صياغة مؤسسات الحكم حقًا له؛ فسلطان الأمة صنو سيادة الشريعة في نظام الحكم الإسلامي، والحث على الرقابة على تصرفات الحاكم، وانتهاء بالإنكار على السلطان الجائر فإن قُتل في هذا المقام كان في منزلة سيد الشهداء!

> **تعامل الإسلام مع المجتمع وفق اتجاهات ثلاثة، ترفع من فاعليته وتزيد من الثقة بين أبنائه، وهي: تكافل المجتمع وتضامنه، ونشر الأفعال الإيجابية والنافعة، وبناء المجتمع القوي الفعال**

قوة المجتمع قوة للدولة:

إن المجتمع القوي ينتج عنه دولة قوية متماسكة، فيرعاها ويحافظ عليها، ويقوم مقامها إن سقطت، ويُعيد بناءها من جديد.. ولهذا أمثلة كثيرة في تاريخنا الإسلامي، أشهرها التصدي للغزو المغولي للعالم الإسلامي حينما عجزت السلطة عن التصدِّي له، فقام المجتمع بجميع فئاته بمدافعته حتى كسر شوكته واستوعبه وأدخله في الإسلام.

أما السلطة التي تحرص على إضعاف المجتمع وتحييده وتستقوي عليه، فهي عبء على المجتمع وعلى نفسها، وسرعان ما تكون مكشوفة أمام الأعداء ومحلاً لطمعهم؛ لأنها فاقدة للأساس الذي تعتمد عليه وتستند إليه.

إن من أكبر أخطاء السلطات التي تنزع إلى الاستبداد: اعتبار نفسها في صراع أو تحدٍ مع المجتمع، أو اعتباره خصمها الذي تحاول تقييده وتحييده وترويضه، فالمجتمع شريك للسلطة في إقامة الدولة؛ فإن كانت السلطة الحاكمة تمثل القوة الخشنة بما تملكه من أدوات السلطة، فإنَّ المجتمع يمثل القوة الناعمة للدولة.

إن الحكومات المستبدة تخشى من شراكة المجتمعات ورقابتها ومساءلتها، لذلك تنزع إلى إضعافها وتفتيتها ونزع مكامن قوتها، ومنع قيام مؤسسات قوية في المجتمع حتى لا تنازعها السلطة والقيادة بزعمها، أو تلجأ إلى إيجاد مؤسسات شكلية أو تحت سلطتها ورقابتها، فتفرغ الدولة من أقوى سلطاتها، وتتخلى هي عن أقوى أسلحتها، فتدمر معالم المجتمع وشخصيته، فيصبح عبئًا على نفسه وعلى السلطة، وهذا ما يفسر انهيار الدول ذات السلطات المستبدة وبطء أو تعثر عافيتها بعد انهيار هذه السلطات.

أما السلطات التي تعرف للمجتمعات مكانتها وقوتها، وفائدتها في قوة الدول وتقدمها فإنها تدعم المجتمعات ومؤسساتها، وتؤسس معها شراكة حقيقية، بل تجعل من مقاييس التقدم كثرة وقوة واستقلال مؤسسات المجتمع؛ كالدول الغربية التي تسمى بالديمقراطية، والتي وصلت إلى هذه النتائج بعد حروب طويلة أكلت الأخضر واليابس، فاقتربوا بذلك من روح التشريعات الإسلامية في أمور الحكم والسلطة، ولعل في هذا مصداقًا لمقولة عمرو بن العاص ﷺ عن الروم، فقد قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس) فقال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال عمرو: «لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة،

أثر قوة المجتمع على قوة الدولة

وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرةً بعد فرةً، وخيرُهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»[1].

فقوله: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس) دلالة على الاستمرارية والتجديد، ثم تأتي الخصال الحضارية تفسيرًا لأسباب هذا الاستمرار والتجدد، وأنه بسببه قد آلت إليهم الدولة، وسادوا البلاد والعباد.

ويلحظ أنها خصال مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بعلاقة المجتمع بالسلطة الحاكمة، وقدرته على مساءلته للحاكم ومحاسبته، ولا يمكن أن تتحقق في ظل نظام مستبد تنعدم فيه قوة المجتمع ورقابته، فثناء عمرو بن العاص ﷺ على تلك الخصال هو في حقيقته ثناء منه على نظامهم ذاك.

وحتى تؤول الدولة والسيادة والريادة للمسلمين ثانية لا بد من أن نتقدم عليهم في هذه الخصال الحضارية، وغيرها من الخصال.

وهذا النموذج سيبقى قويًا ما التزم شكلاً وروحًا بهذه الخصال، وسيكون هشًا إذا التزم بالشكل مع التفريط في روح المشاركة اليقظة وفقدان معناها، كتخدير الناس بالإعلام أو الرفاهية التي تمنعهم من الرقابة فعلاً لا قانونًا.

المجتمع القوي ينتج عنه دولة قوية متماسكة، فيرعاها ويحافظ عليها، ويقوم مقامها إن سقطت، ويُعيد بناءها من جديد.. أما السلطة التي تحرص على إضعاف المجتمع وتحييده وتستقوي عليه، فهي عبء على المجتمع وعلى نفسها، وسرعان ما تكون مكشوفة أمام الأعداء ومحلاً لطمعهم؛ لأنها فاقدة للأساس الذي تعتمد عليه

المجتمع شريك السلطة وداعم لها:

من هنا ينبغي على السلطات الحاكمة أن تدرك أن المجتمع بشخصياته ومؤسساته هو أفضل داعم لها، وأنها بإفساح المجال له لأخذ دوره ومكانته يعود عليها بالقوة والنفع.. فالمجتمع هو المؤثر في سلوك الأفراد وأخلاقهم، ومن يحدد القيم والمعايير الصالحة.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٨).

والمجتمع بسلطته هو القيم والرقيب على الأفراد وتقويمهم، وتستطيع مؤسساته المختلفة (الشرعية، والاقتصادية، والتعليمية، والصحية، ... وغيرها) أن تقوم بحاجات المجتمع ومتطلباته وتلبيها، وتكون عونًا للحكومة في قضائها، وبذلك توفر عليها أوقاتًا وجهودًا كثيفة.

بل إن مؤسسات المجتمع كثيرًا ما تقوم بأعمال لا تستطيع الحكومة القيام بها، أو لا يناسب القيام بها ليس في الداخل فحسب، بل حتى في العالم الخارجي مع بقية الدول والأنظمة، وبهذا ترفع الحرج عن السلطة، وتوصل ما ينبغي قوله أو فعله في مجالات أو أوقات حساسة.

كما أن المجتمع هو الضامن لإرادته ومكتسباته في حال تغول السلطة أو انحرافها عن جادة الحق، فتكون مؤسسات المجتمع هي الملاذ الآمن للفكر والهوية.

وقد تكرر ذلك مرارًا عبر التاريخ؛ كمحنة خلق القرآن في عهد الدولة العباسية، ومواجهة الدولة العبيدية وانحرافاتها في الشمال الأفريقي، والتصدي للغزو الفكري المعاصر بشتى فروعه وانحرافاته: الشيوعية، والإلحادية، والليبرالية، والتكفيرية، وغيرها.. بما حفظ الدين وعقائد الناس.

بل كان المجتمع بقادته ووجهائه وعلمائه أهم مَن وقف أمام الغزو الصليبي والاستعمار المعاصر حينما عجزت الدول عن القيام بهذه المهمة وانهارت، كما أنه حافظ على دين وهوية الشعوب تحت ظل الأنظمة القمعية من شيوعية وإلحادية وعلمانية وغيرها، فـ«الحراك المجتمعي» أو «المجتمع الحي» هو خير ضمانة للحفاظ على المجتمع ودينه وهويته.

المجتمع شريك في تحمل المسؤولية في القرارات المهمة:

إن مشاركة المجتمع ومؤسساته في قرارات السلطة تتضمن جانبًا مهمًا وهو تحمل المسؤولية التاريخية والشرعية في القرارات المهمة التي تؤثر في مصير الدولة، السياسية منها، والعسكرية، والاقتصادية، وغيرها، وعدم انفراد بضعة أشخاص في السلطة بها، وهذا مما يرشّد هذه القرارات ويقويها، ويجعلها منبثقةً من واقع المجتمع وحاجاته الحقيقية.

فرسول الله ﷺ وهو المعصوم والمؤيّد بالوحي، لم ينفرد في نوازل المدينة ولم يقض أمرًا إلا بعد استشارة الصحابة ﷺ، وكان يقول: (ليرفع لنا عرفاؤكم أمركم)[1]، ثم تحمّل معهم نتيجة هذه الاستشارة، كما في أسارى غزوة بدر، والخروج لغزوة أحد، وغيرها.

وكثيرًا ما كان ينزل على رأي أصحابه ولو خالف رأيهم رأيه واجتهاده -ما لم يكن وحيًا-، ومن ذلك اختيار موقع معسكر المسلمين في بدر، ومسألة بذل ثلث ثمار المدينة لغطفان من عدمه في الأحزاب، وغيرها من المواقف، فكان ﷺ بهذه الشورى وهذا النزول على رأيهم يرفع من شأنهم ومن ثقتهم بأنفسهم ومن قوتهم المجتمعية.

وعلى سنته سار الخلفاء الراشدون، والعديد من الخلفاء في الدول الإسلامية المتعاقبة.

> **إضعاف المجتمع وتفكيك مؤسساته، وتنحية نخبه عن صناعة القرار، سيؤدي إلى إجفال العلماء والنشطاء والصلحاء، وكل من يحاول تقديم النصح أو النقد، وإلى تقريب الموافقين والمادحين، مما ينبت طبقة جديدة من المنافقين والمتسلقين الذين يقولون ما يرضي السلطة، ويوافق هواها، وهذا بداية انحراف وفساد عظيم**

مجتمع ضعيف.. مجتمع منافق:

إن إضعاف المجتمع وتفكيك مؤسساته، وتنحية نخبه عن صناعة القرار، سيؤدي إلى إجفال العلماء والنشطاء والصلحاء، وكل من يحاول تقديم النصح أو النقد، أو حتى المشاركة في صناعة القرارات أو تسديدها، وعدم اعتبار كلامهم ومواقفهم، وإلى تقريب الموافقين والمادحين، مما ينبت طبقة جديدة من المنافقين المتسلقين الذين يقولون ما يرضي السلطة، ويوافق هواها، وهذا بداية انحراف وفساد عظيم.

وقد حرص النبي ﷺ على قوة المجتمع، وكذلك فعل خلفاؤه الراشدون، قال أبو بكر الصديق ﷺ في خطبته لما تولى: «فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني»، وقال فيها: «أطيعوني ما أطعت

(١) ينظر: صحيح البخاري (٢٣٠٧).

أثر ضعف المجتمع على قوة الدولة

الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[١]، وهو بهذه الكلمات يضع قواعد العلاقة بين السلطة والمجتمع، ويبين حقوق المجتمع ووجباته تجاه السلطة الحاكمة.

ولعمر بن الخطاب ﷺ مواقف مشهودة مشهورة، منها أنه قال يومًا في مجلس، وحوله المهاجرون والأنصار: «أرأيتم لو ترخّصت في بعض الأمر، ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا، فعاد مرتين، أو ثلاثًا، قال بشير بن سعد: لو فعلت قومناك تقويم القدح، قال عمر: أنتم إذن أنتم»[٢].

ومنها أنه وَجد يومًا محمد بن مسلمة ﷺ، فقال عمر: كيف تراني يا محمد؟ فقال: أراك والله كما أحب، وكما يُحب من يحب لك الخير، أراك قويًا على جمع المال، عفيفًا عنه، عادلاً في قسمه، ولو ملت عدلناك كما يُعدل السهم في الثقاف، فقال عمر: هاه، فقال: ولو ملت عدلناك كما يُعدل السهم في الثقاف، فقال: الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني[٣].

وخطب معاوية بن أبي سفيان ﷺ في يوم جمعة فقال: إنما المال مالنا والفيء فيئنا، من شئنا أعطينا، ومن شئنا منعنا، فلم يردّ عليه أحد، فلما كانت الجمعة الثانية قال مثل مقالته، فلم يردّ عليه أحد، فلما كانت الجمعة الثالثة قال مثل مقالته، فقام إليه رجلٌ ممن شهد المسجد فقال: كلا، بل المال مالنا والفيء فيئنا، من حال بيننا وبينه حاكمناه بأسيافنا، فلما صلى أمر بالرجل فأدخل عليه، فأجلسه معه على السرير، ثم أذن للناس فدخلوا عليه، ثم قال: أيها الناس، إني تكلمت في أول جمعة فلم يرّد علي أحد، وفي الثانية فلم يردّ علي أحد، فلما كانت الثالثة أحياني هذا أحياه الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيأتي قوم يتكلمون، فلا يُرد عليهم، يتقاحمون في النار تقاحم القردة)، فخشيت أن يجعلني الله منهم، فلما ردّ هذا عليّ أحياني، أحياه الله، ورجوت أن لا يجعلني الله منهم[٤].

وهذه المواقف من عمر ومعاوية ﷺ تصبُّ في تقوية المجتمع وتشجيعه على قول الحق ولو في وجه الحاكم العام.

(١) سيرة ابن هشام (٦٦١/٢).
(٢) تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر (٢٩٢/١٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣٧٢/٢).
(٤) أخرجه أبو يعلى (٧٣٨٢).

حفظ لنا التاريخ كلمات مضيئة للخلفاء الراشدين وغيرهم من بعدهم تضع قواعد العلاقة بين السلطة والمجتمع، وتبين حقوق المجتمع ووجباته تجاه السلطة الحاكمة، وتصبُّ في تقوية المجتمع وتشجيعه على قول الحق ولو في وجه الحاكم العام

السلطة السورية الجديدة والفرصة التاريخية:

إن المرحلة التاريخية الهامة والحرجة التي تمر بها سوريا اليوم، وما تواجهه من تحديات داخلية وخارجية توجب على السلطة أن تولي وجهها نحو المجتمع الداخلي؛ اعترافًا به، ودعمًا وتقويةً له، وتلاحمًا معه، وإتاحةً للمجال لتكوين المؤسسات المجتمعية بأنواعها، وحرصًا على أخذ المشروعية الداخلية، واستشارةً حقيقيةً في القرارات والخطوات المصيرية سياسية كانت أو اقتصادية، أو غيرها، لتقوية الدولة أمام التحديات الداخلية والخارجية، وتفويت الفرصة على المتربصين بها، ومنع خطر انفضاض الناس عنها، أو شعورهم أنها لا تمثلهم.

إن نموذج الدولة الذي اعتادت عليه الدول العظمى في المنطقة هو نموذج مفرَّغ من حيوية المؤسسات المجتمعية؛ لذا فإنهم سيميلون إلى استمراره والضغط والابتزاز بناءً عليه، وبالتالي فلن يتحقّق للسوريين ما يصبون إليه، وما بذلوا من أجله الغالي والنفيس. كما أن تناقض مصالح الدول فيما بينها سيستنزف من يلتفت إلى جعلها أولوية متفردًا بمواجهتها بالأجهزة الرسمية وهي محدودة، وبالتالي نبقى في حلقة مفرغة تغري القوى الخارجية بالمزيد من الابتزاز مما يؤدي إلى إبقاء سوريا كما عهدوها.

إن العمل على هذا الأمر شاقٌّ وطويل، ويحتاج للتنازل عن العديد من أوجه «السلطة»، وقد لا يتوقع أن يكون انتقالاً جذريًا في مرحلة التأسيس، لكن البدايات الصحيحة ضرورية ولو كانت صغيرة، ونتائجها ستوفر أساسًا صلبًا لدولة قوية، ممثلة للشعب، مستقلة القرار، لا تخضع للابتزاز ولا الضغوط.

وإن الجميع مخاطب بهذا، السلطة الحاكمة، وسائر قادة المجتمع السوري من العلماء والسياسيين والمفكرين والأكاديميين، ورجال المال والأعمال، وعموم الناس.

أما إذا قصّرت الدولة في هذا الجانب أو آثرت الاعتماد على الخارج، وأهملت المجتمع ومؤسساته، فالمسؤولية تنتقل إلى العلماء ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤] فتبدأ مسؤوليتهم في النصح والبيان والتوجيه.

وأصحاب رسول الله ﷺ فهموا هذا وأدوه كما فهموه، قال أبو الدرداء ﷺ لوالي الشام: «إنَّ رسول الله ﷺ كان يأمرنا إذا تغيرتم نتغير عليكم»[1]! قالها له وهو صحابي مثله ﷺ، لكنه واجب بيان الحق وأداء الأمانة.

وللعلماء بعدهم مواقف صلبة تتعاظم فيها نفوسهم أمام لعاعة الدنيا، وتتحاقر فيها الدنيا ومتعها ولذاتها من الجاه والمال والدعة في عيونهم، حتى صاروا كالجبال شموخًا وعزة، والتاريخ زاخر بمواقف سعيد بن المسيب والحسن البصري والأوزاعي وأبي حنيفة ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل، حتى شكل سفيان الثوري وعبدالله بن المبارك ما يشبه الرابطة العلمائية التي تقوم بواجب النصح والاحتساب، وتنكر على من يقف على أبواب الولاة من العلماء، ويتواصون على هذا العهد فيما بينهم[2]، كل ذلك حفاظًا على استقلال كلمة العلماء، وقوة المجتمع، ومنعًا للحاكم من التفرد بالسلطة والاستبداد.

فَهِم أصحاب رسول الله ﷺ دور المجتمع في تقوية الدولة، فعملوا به وأدوه إلى من بعدهم، وللعلماء بعدهم مواقف صلبة تتعاظم فيها نفوسهم أمام لعاعة الدنيا، وتتحاقر فيها الدنيا ومتعها ولذاتها من الجاه والمال والدعة في عيونهم، حتى صاروا كالجبال شموخًا وعزة، والتاريخ زاخر بمواقفهم وأفعالهم

(١) أخبار الشيوخ وأخلاقهم، للمروذي، ص (٥٧).
(٢) للتوسع ينظر كتاب: أخبار الشيوخ وأخلاقهم.

تاريخ حزب البعث في سوريا: الاستيلاء والأفول

أ. حسام طرشة (*)

لم يكن نظام البعث مجرّد نظام سياسي، بل منظومة شمولية تهدف عبر أجهزتها الأمنية المرعبة إلى الهيمنة على جميع مفاصل الدولة والمجتمع في سوريا. واجهت القوى الوطنية هذا النظام بصراع مرير، ودفع الشعب السوري -وبخاصة أهل السنّة- ثمنًا باهظًا وناله من صنوف الاستبداد والإجرام الكثير. يقدّم المقال سردًا لجذور البعث وأيديولوجيته المتطرفة، ومساره نحو السيطرة على سوريا بعد الاستقلال عن فرنسا، كما يكشف محطات صعوده، وصولاً إلى حكم آل الأسد.

حكم حزب البعث العربي الاشتراكي سوريا لأكثر من ستة عقود بدءًا من انقلاب عام ١٩٦٣م[١]، ثم وصول حافظ الأسد (١٩٧١-٢٠٠٠م) إلى السلطة، ثمّ استلام ابنه بشار الأسد (٢٠٠٠-٢٠٢٤م) حتى سقوطه في الثامن من شهر كانون الأول/ديسمبر عام ٢٠٢٤م، ومنذ وصوله للحكم واجهه الشعب بنضال مستمر متعددِ الأوجه سعيًا لتحقيق الحرية والكرامة، في رحلة تمتد عبر أكثر من نصف قرن، ليكتب فصلاً مهمًا في تاريخ المنطقة العربية، ويقدم دروسًا عميقة حول مآلات الأنظمة الشمولية ومقاومة الشعوب لها.

جذور الاستبداد - تأسيس حزب البعث وأيديولوجيته (١٩٤٧-١٩٦٣م):

في السابع من أبريل عام ١٩٤٧م، وُلِد حزب البعث العربي الاشتراكي في دمشق نتيجة دمج

(*) مهندس مدني، مهتم بالعلوم الشرعية والسياسية والاجتماعية.

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، الجزء الأول (١٩٤٠-١٩٦٣م)، مصطفى دندشلي.

حركتين: حركة البعث العربي بقيادة المسيحي ميشيل عفلق[١]، والحزب القومي بقيادة زكي الأرسوزي النصيري[٢].

تأثرت الأيديولوجية البعثية بتيارات فكرية متنوعة، بعضها مثير للجدل، فقد تأثر ميشيل عفلق بأفكار الإيطالي الماسوني جيوزيبي مازيني الذي أسس الفكر القومي الإيطالي[٣]، بينما تأثر زكي الأرسوزي بفلسفة فريدريك نيتشه[٤]، خاصة كتابه «هكذا تكلم زرادشت عن موت الإله». هذه التأثيرات أنتجت مزيجًا يجمع بين القومية العربية والاشتراكية والعلمانية، وهو ما شكّل لاحقًا أساسًا للممارسات السياسية للحزب.

وضع الأرسوزي مبادئ أربعة للحزب تلخّص رؤيته القومية المتطرفة: أولاً: العرب أمة واحدة بغضّ النظر عن ديانتهم ومعتقداتهم. ثانيًا: للعرب زعيمٌ واحد يتجلّى من إمكانات الأمة العربية يمثلها ويعبر عنها. ثالثًا: العروبة هي مصدر المقدّسات وعنها تنبثق المثل العليا وبالنسبة إليها تُقدّر قيم الأشياء. رابعًا: العربي سيّد القدَر[٥].

مرّ حزب البعث بمرحلتين أساسيتين قبل وصوله إلى السلطة: مرحلة التنظير الثوري منذ النشأة، حيث اتّسم فيها بمعارضته للسلطة، ومن أبرز وجوه هذه المرحلة: المؤسسون ميشيل عفلق وصلاح البيطار. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة العمل الشعبي منذ بداية الخمسينات، وتجلّت بانضمام أكرم الحوراني[٦]، الشخصية البراغماتية التي تتّسم بالحضور الجماهيري الواسع؛ فحصل تغيير جذري في قاعدة الحزب وجماهيريته.

لم تحظَ أفكار حزب البعث بقبول شعبي واسع عند انطلاقه بسبب تطرفها ومصادمتها للثوابت الدينية والثقافية، لكن هزيمة ١٩٤٨م أمام إسرائيل شكّلت صدمةً دفعت الشعوب للتمرد على النخب، فاستغلّ البعث ذلك للانتقال من المعارضة إلى السعي للسلطة منذ ١٩٤٩م، حيث لعب الحزب دورًا في قيام الوحدة بين سوريا ومصر عام ١٩٥٨م، ثم ساهم في انفصالها ١٩٦١م حيث دعَمَ قادتُه الانقلاب ضد الوحدة. وقد شهد الحزب حينها انقسامًا بين القيادة القومية والقيادة القطرية، وظهرت فروع أخرى كالوحدويين والناصريين، هذه الانقسامات المبكرة كانت نذيرًا لصراعات أعمق وانحرافات فكرية ظهرت بجلاء بعد تسلّم الحزب مقاليد الحكم.

> **تأثرت الأيديولوجية البعثية بتيارات فكرية متنوعة، بعضها مثير للجدل، فقد تأثر ميشيل عفلق بأفكار الإيطالي الماسوني جيوزيبي مازيني، بينما تأثر زكي الأرسوزي بفلسفة فريدريك نيتشه، هذه التأثيرات أنتجت مزيجًا يجمع بين القومية العربية والاشتراكية والعلمانية، وهو ما شكّل لاحقًا أساسًا للممارسات السياسية للحزب**

(١) مفكر قومي سوري وُلد عام ١٩١٠م، أسس مع صلاح البيطار حزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٤٧م. تأثر بالفكر القومي الأوروبي، ودعا إلى وحدة الأمة العربية، ومات في بغداد عام ١٩٨٩م.

(٢) ولد عام ١٨٩٩م في اللاذقية، وكان من أوائل المفكرين القوميين العرب. أسس حزب البعث العربي في أنطاكية عام ١٩٤٠م، وساهم في تطوير الفكر القومي العربي، ومات عام ١٩٦٨م.

(٣) جيوزيبي مازيني: سياسي ومفكر إيطالي وُلد عام ١٨٠٥م، أسس حركة «إيطاليا الفتاة»، وكان له تأثير كبير على الحركات القومية في أوروبا، تؤكد المصادر التاريخية عضويته في جمعيات سرية مثل «الكاربوناري» والتي كانت على خطى الماسونية. وقد استورد عفلق منه فكرة «البعث» (أو النهضة) وأهدافها الثلاثة الأساسية: الوحدة، الحرية، والاستقلال.

(٤) فريدريك نيتشه: فيلسوف ألماني وُلد عام ١٨٤٤م، عُرف بنقده الحاد للأخلاق والدين، وطرح مفاهيم مثل «إرادة القوة» و«الإنسان الأعلى». مات عام ١٩٠٠م بعد إصابته بانهيار عقلي. تؤكد المصادر الأكاديمية والشهادات المباشرة تأثر زكي الأرسوزي بفلسفة فريدريك نيتشه. فخلال دراسته في السوربون، انغمس الأرسوزي ورفاقه في الفلسفة الأوروبية، بما في ذلك فكر نيتشه. أحد الأدلة القوية على ذلك هو شهادة القيادي البعثي سامي الجندي، الذي ذكر صراحة أن دائرة الأرسوزي كانت معجبة بالنازية وتقرأ كتبها ومصادر فكرها، وخص بالذكر كتاب «هكذا تكلم زرادشت» لنيتشه. كما يذكر يوسف إم. شويري في كتابه «القومية العربية: تاريخ الأمة والدولة في العالم العربي» هذا التأثير.

(٥) هذه العبارة «العربيّ سيّد القدر» تعبر عن جوهر الفكر القومي المتطرف الذي تبناه الأرسوزي، إنها دعوة إلى أن يكون الكيان العربي (الأمة أو الشعب العربي) هو المتحكم الأوحد في مصيره ومستقبله، وأن يمتلك السيادة المطلقة على قدره، دون خضوع لأي قوى خارجية أو قوى «قدرية» مفروضة عليه!

(٦) أكرم الحوراني: سياسي سوري وُلد عام ١٩١٢م في حماة، أسس الحزب العربي الاشتراكي، وشارك في تأسيس حزب البعث. شغل منصب نائب رئيس الجمهورية في عهد الوحدة مع مصر، ومات في المنفى عام ١٩٩٦م.

الاستيلاء على السلطة - انقلاب البعث وبداية القمع (١٩٦٣-١٩٦٦م):

في الثامن من آذار/مارس عام ١٩٦٣م تحوّلت طموحات البعثيين في الحكم إلى واقع ملموس عندما نفّذت «اللجنة العسكرية» انقلابًا عسكريًا أطاح بالحكومة القائمة، سُمّي هذا الانقلاب لاحقًا بـ «ثورة ٨ آذار»، وكانت اللجنة العسكرية المنفذة له تتكون من ضباط بعثيين بارزين، هم: حافظ الأسد، ومحمد عمران[١]، وعبد الكريم الجندي[٢]، وصلاح جديد[٣]، وأحمد المير[٤]. حظي الانقلاب بمباركة من «اللجنة المدنية» في الحزب، ليبدأ بذلك عهد جديد من هيمنة البعث على مقاليد الحكم في سوريا.

فور استيلائهم على السلطة، بدأ البعثيّون بتنفيذ إجراءات قمعية لترسيخ حكمهم؛ فأُعلنت حالة الطوارئ التي استمرت لعقود طويلة، وحُظرت الأحزاب السياسية، وبدأت عمليات «تطهير» واسعة في صفوف الجيش والنخب السياسية من غير البعثيّين، كما عمل النظام الجديد على تعزيز سيطرة الأقلّية العلوية على المؤسسات العسكرية والأمنية[٥]، مما أسس لطابع طائفي سيلازم النظام طيلةَ فترة حكمه.

وفي أبريل/نيسان ١٩٦٤م واجه النظام أول احتجاج شعبي واسع في حماة، سرعان ما امتد إلى مدن أخرى، فقُمِع بوحشية بواسطة الجيش؛ مما أدّى إلى سقوط عشرات القتلى. هذه الأحداث كشفت عن الوجه الحقيقي للنظام البعثيّ وأسلوبه في التعامل مع أي معارضة شعبية، كما أظهرت عداءه الشديد لأي تعبير دينيّ يتعارض مع أيديولوجيته.

لكن هذه السلطة لم تكن مستقرة داخليًا، إذ سرعان ما بدأت الخلافات تدبّ في صفوف قادة الانقلاب أنفسهم.

الصراع على السلطة - الانقسامات داخل البعث (١٩٦٦-١٩٧٠م):

بعد عامين من تسلّم البعث السلطة، ظهر صراع داخلي حادّ بين الجناح العسكري (بقيادة صلاح جديد وحافظ الأسد) والجناح المدني (بقيادة ميشيل عفلق) حول السلطة والنهج السياسي؛ مما أدى لانقلاب داخلي عام ١٩٦٦م أطاح بعفلق وأنصاره وتنحية رئيس الجمهورية نور الدين الأتاسي[٦] الذي كان مدعومًا منهم، وانتهى بتصفية القيادة التاريخية للحزب، وهروب عفلق إلى العراق حيث أسس الجناح العراقي للحزب، وتخلّى الجناح السوري عن كثير من المبادئ التي أُسّس عليها.

مع مرور الوقت ازداد التوتر والبعد التدريجي بين جناح صلاح جديد المتشدد وحافظ الأسد البراغماتي الذي بدأ بالتخطيط للانفراد بالسلطة مستغلاً نفوذه العسكري، وقد وصف سامي الجندي[٧] هذه الانقسامات والصراعات الداخلية بأنها سقوط في مستنقع الدم والعار.

الأيديولوجية في الممارسة - تطبيقات فكر البعث:

رغم الشعارات البراقة التي رفعها حزب البعث منذ تأسيسه حول الوحدة والحرية والاشتراكية، فإنّ الممارسة الفعلية للحزب كشفت عن تناقض صارخ بين النظرية والتطبيق، تجلّت هذه التناقضات بوضوح في الموقف من الدين والتراث الإسلامي، وفي الفجوة بين الخطاب القومي والممارسة الطائفية، وفي العلاقة بين الشعارات الاشتراكية والواقع الاقتصادي.

فعلى المستوى الديني: تبنّى الحزب الإلحاد، ومارس العداء للإسلام رغم عدم إعلان شيء من ذلك صراحة، يقول سامي الجندي في شهادته: «كنا عصاةً تمرّدنا على كلّ القيم القديمة، أعداءً لكل ما تعارف عليه البشر، ألحدنا بكل الطقوس

(١) محمد عمران: ضابط سوري وُلد عام ١٩٢٢م، شارك في انقلاب ١٩٦٣م، وكان عضوًا في اللجنة العسكرية لحزب البعث. اغتيل في بيروت عام ١٩٧٢م.
(٢) عبد الكريم الجندي: ضابط سوري وُلد عام ١٩٣٢م. تولى رئاسة مكتب الأمن القومي بعد انقلاب ١٩٦٦م. مات عام ١٩٦٩م في ظروف غامضة.
(٣) صلاح جديد: سياسي سوري وُلد عام ١٩٢٦م، قاد الجناح اليساري في حزب البعث، وتولى السلطة بعد انقلاب ١٩٦٦م. أُطيح به في انقلاب ١٩٧٠م، ومات في السجن عام ١٩٩٣م.
(٤) أحمد المير: سياسي سوري بارز في خمسينيات القرن العشرين، شغل مناصب وزارية، وكان من الداعمين للوحدة بين سوريا ومصر. مات في دمشق عام ١٩٩٣م.
(٥) للتوسع في ذلك ينظر: كتاب د. بشير زين العابدين (الجيش والسياسة في سوريا)، والورقة البحثية الصادرة عن مركز عمران للدراسات بعنوان: «مراكز القوة في جيش النظام ٢٠٢٠م نهج الصفاء العلوي».
(٦) نور الدين الأتاسي: طبيب وسياسي سوري وُلد عام ١٩٢٩م، تولى رئاسة الجمهورية بعد انقلاب ١٩٦٦م، مات في السجن عام ١٩٩٢م.
(٧) سامي الجندي: طبيب وكاتب سوري وُلد عام ١٩٢١م، شارك في تأسيس حزب البعث، وتولى مناصب وزارية، اعتزل السياسة بعد انقلاب ١٩٦٦م، ومات عام ١٩٩٥م، وترك مذكرات مهمة عن تلك الفترة.

والعلاقات والأديان ... اتُهمنا بالإلحاد، وكان ذلك صحيحًا أيضًا رغم كلّ ما زعم البعثيون فيما بعد من مزاعم التبرير»[١].

ومن مظاهر العداء للإسلام: المقال الذي كتبه إبراهيم خلاص[٢] في مجلة الجيش السوري، والذي قال فيه: «الطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هو خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن بأن الله والأديان والإقطاع ورأس المال وكلّ القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دُمًى محنطة في متاحف التاريخ». ومن مظاهره قول الشاعر البعثي: «آمنت بالبعث ربًا لا شريك له.. وبالعروبة دينًا ما له ثانٍ».

كما تجلّت هذه الموقف العدائية في ممارسات ميدانية صادمة؛ فعندما دخلت قوات البعث حماة سنة ١٩٦٤م، كانت تهزج قائلة: «هات سلاح، خذ سلاح، دين محمد ولّى وراح»، وفي سنة ١٩٨٠م خرجت سرايا الدفاع والحزبيون يهتفون: «يسقط الله»، و«الأسد ربنا»، و«لا إله إلا الوطن ولا رسول إلا البعث».

هذه الممارسات كانت تعكس رؤية زكي الأرسوزي الذي اعتبر العروبة مصدر كلّ المقدّسات، ونادى بفصل الدين عن السياسة، وساوى في نظرته للأمور بين شريعة حمورابي وشعر الجاهلية وبين دين محمد عليه الصلاة والسلام!

وعلى صعيد التشريعات والقوانين: فقد فرض الحزب حالة الطوارئ منذ انقلابه عام ١٩٦٣م، وأنشأ محاكم استثنائية مثل «محكمة أمن الدولة»، ومنع التعددية الحزبية الحقيقية، وحوّل النقابات والمجالس إلى أدوات حزبية. ومع اعتماد دستور ١٩٧٣م الذي نصّ على «قيادة البعث للدولة والمجتمع» ترسّخ نظام الحزب الواحد. وحتى بعد إلغاء المادة الثامنة في دستور ٢٠١٢م احتفظ الرئيس بصلاحيات استثنائية مطلقة، مما أبقى بنية الاستبداد على حالها، وهو ما انعكس على ترتيب سوريا في مؤشرات الفساد العالمية.

وفي البعد القومي ورغم خطاب البعث الوحدوي، إلا أنّه فشل في تحقيق وحدة حتى بين فرعيه السوري والعراقي، بل تحوّلت العلاقة بينهما إلى صراع مرير، وتعمّق الانفصام حين دعمت سوريا طهران ضد بغداد في حرب الخليج الأولى، في موقف فضح زيف الشعارات القومية وكشف التناقض بين المعلن والـمُمارَس.

هذه التناقضات والانحرافات لم تغب عن بعض الأصوات داخل الحزب، فقد صدرت انتقادات داخلية مبكرة عبّرت عن خيبة أمل عميقة من تحوّل البعث إلى أداة للقمع والفساد والسلطوية باسم الشعارات الكبرى.

> **رغم الشعارات البراقة التي رفعها حزب البعث منذ تأسيسه حول الوحدة والحرية والاشتراكية، فإنّ الممارسة الفعلية للحزب كشفت عن تناقض صارخ بين النظرية والتطبيق، تجلّت هذه التناقضات بوضوح في الموقف من الدين والتراث الإسلامي، وفي الفجوة بين الخطاب القومي والممارسة الطائفية، وفي العلاقة بين الشعارات الاشتراكية والواقع الاقتصادي**

أصوات المعارضة - شهادات من داخل الحزب:

من المفارقات اللافتة في تاريخ البعث أنّ بعض أشدّ الانتقادات لممارساته وانحرافاته جاءت من داخله، ومن قياداته المؤسِّسة تحديدًا، هذه الشهادات الداخلية تكتسب أهمية خاصة لأنها تأتي من أشخاص عايشوا تجربة الحزب من الداخل، وساهموا في صياغة أفكاره وسياساته، قبل أن ينقلبوا عليه ويكشفوا عن حقيقته.

من أبرز هذه الشهادات ما قدمه سامي الجندي وقد تقدّم ذكر بعض كلامه. وفي شهادته على القمع الذي كان يمارسه الحزب حتى ضدّ أعضائه وعن الفجوة الهائلة بين الشعارات والممارسة يقول: «تقريرٌ بسيط على ورقة من أحد الرفاق، تبدأ بـ«أمة عربية واحدة» وتنتهي بـ«الخلود لرسالتنا» يعني شهورًا في الزنزانة، ثم إنسانًا يُحطّم مدى الحياة»[٣].

(١) البعث، للدكتور سامي الجندي، بيروت ١٩٦٩م.

(٢) إبراهيم خلاص: سياسي سوري بارز في خمسينيات القرن العشرين، شغل مناصب وزارية، وكان من الداعمين للوحدة بين سوريا ومصر، مات في دمشق عام ١٩٩٣م.

(٣) البعث، ص (١٦١-١٦٢).

حصاد سنوات حكم البعث في سوريا

أما صلاح البيطار، فقد كتب مقالاً في مجلة «الإحياء العربيّ» التي كان يصدرها في باريس عام ١٩٨٠م قدّم فيه اعتذارًا للشعب السوري عما أسماه «جريمة البعث».

ومن الشهادات المهمة أيضًا ما قدمه جلال السيد[١] ابن مدينة دير الزور، الذي يعتبر ثالث ثلاثة أسسوا حزب البعث، فقد نشر عام ١٩٧٤م كتابًا بعنوان «البعث العربي» انتقد فيه ممارسات البعث الوحشية التي قام بها الحزبيون ضدّ خصومهم، ومما قاله: «وقف هؤلاء الحزبيون موقف العدوّ من كلّ مواطن لا يدين لهم ولا يسير وفق منهجهم وسلوكهم، واستباحوا دم الخصوم من المواطنين إذا لزم الأمر ذلك».

ثم هناك كتاب منيف الرزاز[٢] «التجربة المرّة» الصادر عام ١٩٦٧م، الذي وثق فيه انحرافات حزب البعث واهتراء بنيته الأيديولوجية. ولهذه الشهادة أهمية خاصة؛ لأنّها جاءت مبكرًا، قبل أن تظهر مساوئ النظام البعثي للعالم.

هذه الشهادات من داخل الحزب تُشكل إدانة قوية لتجربة البعثِ في الحكم، وتكشف عن حجم الانحراف الذي أصاب المشروع البعثي. كما أنّها تقدّم درسًا مهمًا حول مآلات الأيديولوجيات المتطرفة عندما تصل إلى السلطة، وكيف يمكن للشعارات البراقة أن تتحوّل إلى غطاء للقمع والاستبداد.

ترسيخ الديكتاتورية - حكم حافظ الأسد (١٩٧٠-٢٠٠٠م):

في السادس عشر من تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٧٠م، كتب حافظ الأسد فصلاً جديدًا في تاريخ سوريا المعاصر عندما نفّذ انقلابًا عسكريًا على رفيق دربه صلاح جديد أطلق عليه اسم «الحركة التصحيحية»، مدّعيًا أنه يهدف إلى تصحيح مسار الثورة وإعادتها إلى جادّة الصواب. لكن الحقيقة كانت أبعد ما تكون عن ذلك؛ إذ كان الانقلاب بداية لعهد جديد من الاستبداد والظلم الذي سيستمر لثلاثة عقود.

(١) جلال السيد: سياسي سوري بارز في خمسينيات القرن العشرين، شغل مناصب وزارية، وكان من الداعمين للوحدة بين سوريا ومصر. مات في دمشق عام ١٩٩٣م.

(٢) منيف الرزاز: مفكر وسياسي أردني وُلد عام ١٩١٩م، كان من دهاقنة وأباطرة الحزب المؤسّسين، تولى الأمانة العامة لحزب البعث في الستينيات. اعتُقل بعد انقلاب ١٩٧٠م في سوريا، ومات في الإقامة الجبرية عام ١٩٨٤.

اعتقل صلاح جديد وجماعته، وحلّ البرلمان، وشكّل أول برلمان في تاريخ سوريا لم يُنتخب أي عضو من أعضائه، ثم أضاف المادة الثامنة الشهيرة في دستور ١٩٧٤م، والتي نصت على أن حزب البعث هو «الحزب القائد للدولة والمجتمع»، هذه المادة أسست لاحتكار كامل للسلطة، وشرعنت القمع السياسي باسم الدستور.

ولإضفاء طابع تعددي شكلي على نظامه؛ شكّل الأسد «الجبهة الوطنيّة التقدّمية» في السابع من آذار/مارس ١٩٧٢م، ضمّت إلى جانب حزب البعث العربي الاشتراكي خمسة أحزاب[١] تمارس السياسة تحت مظلته وبمباركته، لكن هذه التعدّدية كانت مجرد واجهة، إذ ظلّ البعث هو المتحكّم الفعلي بكل مفاصل الدولة.

وتحوّل النظام السوري إلى نظام ديكتاتوري عائلي طائفي، يهيمن فيه العلويون على المناصب الحساسة في الجيش والأجهزة الأمنية. وأصبحت المخابرات و«كتّيبة التقارير»[٢] أدوات رئيسة للسيطرة على المجتمع وقمع أي صوت معارض. شهدت هذه الفترة صدامات ومعتقلات ومجازر عديدة، كان أبرزها مجزرة حماة عام ١٩٨٢م التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من المدنيين.

أما صلاح البيطار فقد هرب إلى لبنان، وحُكم عليه غيابيًّا بالإعدام؛ فهرب إلى باريس، وفي عام ١٩٧٨م دعاه حافظ الأسد إلى سوريا فرفض وبدأ حركة معارضة ضد عائلة الأسد، ليُغتال بعد ذلك في باريس عام ١٩٨٠م. كانت تصفية البيطار رسالة واضحة لكل من يفكر في معارضة نظام الأسد، حتى لو كان من مؤسسي الحزب نفسه.

خلال فترة حكم حافظ الأسد، هيمن الحزب على كلّ مفاصل السلطة وأسس نظامًا شموليًا، كما اتّبع المنهج الشيوعي في الهيكل التنظيمي للحزب؛ ما جعله أقربَ إلى تنظيم أمني منه إلى تنظيم سياسي. وبحسب الأرقام المعلن عنها من قِبل الحزب فإن أكثر من ١.٥ مليون شخص كانوا ينتمون للحزب، وهو ما يعكس حجم التغلغل البعثي في المجتمع السوري.

لم يكن الانتماء للحزب في كثير من الأحيان نابعًا من قناعة أيديولوجية، بل كان وسيلة للحصول على امتيازات وظيفية واجتماعية، أو تجنبًا للمضايقات الأمنية، هذا الوضع خلق طبقة واسعة من «البعثيين» الذين لا يؤمنون فعليًا بمبادئ الحزب، لكنهم يستخدمونه غطاء للوصول إلى مصالحهم الشخصية.

استطاع حافظ الأسد خلال فترة حكمه أن يبنيَ نظامًا متماسكًا يقوم على ولاءات شخصية وطائفية، وعلى شبكة معقدة من المصالح المتداخلة، كما نجح في تحييد المعارضة الداخلية والخارجية من خلال مزيج من القمع والمناورة السياسية، وعندما مات عام ٢٠٠٠م كان قد أعدّ العدّة لتوريث السلطة لابنه بشار الأسد، بعد خسارته لابنه باسل الذي قُتل في حادث سير. كان توريث بشار خطوة غير مسبوقة في تاريخ الجمهوريات العربيّة الحديثة.

من الأب إلى الابن - فترة حكم بشار الأسد (٢٠٠٠-٢٠٢٤م):

بعد هلاك حافظ الأسد عام ٢٠٠٠م، انتقلت السلطة إلى ابنه بشار في أول عملية توريث جمهوري في العالم العربي[٣]، بدأ عهد بشار بقرار مفاجئ بفتح الحياة السياسية تدريجيًّا، فتشكّل ما سُمي «ربيع دمشق»، وكانت فترة قصيرة نسبيًّا، سرعان ما أُغلقت أبوابها ليعود النظام إلى سياسات القمع والاستبداد.

بدأت بوادر ربيع دمشق مع خطاب القسم الذي ألقاه بشار أمام مجلس الشعب السوري، والذي أشار فيه إلى أن «الفكر الديمقراطي يستند إلى أساس قبول الرأي»؛ مما أثار آمالاً كبيرة في أوساط المعارضة والمثقفين بإمكانية تحسين أوضاع البلاد، وفتح المجال للإصلاح السياسي والاجتماعي.

وانتشرت المنتديات السياسية غير الرسمية والتي عقدت لفتح النقاش بشأن القضايا السياسية في البلاد وقضايا المجتمع المدني والإصلاحات، لكن سرعان ما بدأت السلطات بالتضييق عليها،

(١) هذه الأحزاب هي: الحزب الشيوعي السوري (بشقيه: جناح بكداش وجناح يوسف فيصل)، وحزب الاتحاد الاشتراكي العربي، وحزب الوحدويين الاشتراكيين، وحركة الاشتراكيين العرب، والحزب الوحدوي الاشتراكي الديمقراطي.

(٢) وهذه عبارة باللهجة السورية كانت تُطلق على الذين يكتبون التقارير لأفرع الاستخبارات والأمن للوشاية والإيقاع بكل معارض أو مخالف.

(٣) عند وفاة حافظ في ١٠ يونيو ٢٠٠٠م، كان الدستور السوري يشترط أن يكون عمر رئيس الجمهورية ٤٠ عامًا على الأقل، ولأن ابنه بشار الأسد كان يبلغ من العمر ٣٤ عامًا حينها، تم تمرير تعديل دستوري عاجل وغير مسبوق في ٢٠ يونيو ٢٠٠٠ ليخفض هذا الشرط إلى ٣٤ عامًا. هذا التعديل الذي تم في غضون ساعات قليلة من وفاة حافظ الأسد سمح لبشار الأسد بالترشح للرئاسة، ما أفسح الطريق أمام «توريث» الحكم في سوريا.

فقد صرّح وزير الإعلام عدنان عمران[١] في يناير ٢٠٠١م بأنّ «دعاة المجتمع المدني استعمار جديد»!

وفي فبراير، هاجم عبد الحليم خدام[٢] المثقفين قائلاً: «لن نسمح بتحويل سوريا إلى جزائر أو يوغوسلافيا أخرى». كما وجه قياديو حزب البعث الحاكم وقيادات الجبهة الوطنية التقدمية التابعة للنظام السوري حملة مضادة للمنتديات، وأُعلنت شروط صارمة لعقد المنتديات، فاستمر اثنان فقط من أصل نحو سبعين.

مع نهاية شباط/فبراير ٢٠٠١م، وجه بشار انتقادًا للبيانات السياسية، وقال بأنّه لم يقرأها، بل سمع عنها، متسائلاً: «هل هم مثقفون فعلاً أم ماذا؟»، وفي منتصف آذار/مارس صرّح أثناء حضوره مناورات للقوات المسلحة: «في سوريا أسسٌ لا يمكن المساس بها، قوامها مصالح الشعب».

شهدت البلاد إثر ذلك حملة اعتقالات واسعة طالت العديد من رموز ربيع دمشق، بمن فيهم: رياض سيف[٣] ورياض الترك[٤] ومأمون الحمصي[٥] وعارف دليلة[٦] وآخرين، ووجهت إليهم تهمة: «محاولة تغيير الدستور بوسائل غير مشروعة»، وكان سيف قد اعتقل بعد أن نشر تقريرًا عن الفساد في قطاع الاتصالات. وقد حُكم على المعتقلين بالسجن لمدد تراوحت بين سنتين وعشر سنوات، وبذلك أسدل الستار على فترة ربيع دمشق القصيرة.

وصفت منظمة «هيومن رايتس ووتش» تلك الفترة وما لحقها بـ «العقد الضائع»، إذ عادت سوريا إلى سياسات القمع والاستبداد التي كانت سائدة قبل تولي بشار الأسد الحكم[٧].

ومع اندلاع الربيع العربي في نهاية عام ٢٠١٠م وبداية عام ٢٠١١م، وسقوط أنظمة استبدادية في تونس ومصر وليبيا؛ بدأت الاحتجاجات السلمية في سوريا في مارس/آذار ٢٠١١م، كانت مطالب المحتجين في البداية إصلاحية، تتعلّق بتحسين الأوضاع المعيشية ومكافحة الفساد وإطلاق الحريات السياسية، والحفاظ على حرية الإنسان وكرامته. لكنّ النظام واجه هذه الاحتجاجات بالقمع العنيف، والتنكيل ببعض الأطفال -الذين خطّوا عبارات مناهضة على الجدران في درعا- بالقتل والتعذيب الشديد؛ مما أدى إلى تصاعدها وتحوّلها تدريجيًا إلى ثورة شاملة تطالب بإصلاح النظام.

على مدى سنوات الثورة ارتكب النظام البعثي جرائم حرب ومجازر ضدّ المدنيين، شملت استخدام الأسلحة الكيميائية، وقصف المدن والأحياء السكنية بأعتى أنواع أسلحة التدمير، والتعذيب المنهج في المعتقلات، والتهجير القسري للسكان، وتدمير البنى التحتية للبلاد؛ مما أدى إلى مقتل مئات الآلاف من السوريين (تشير العديد من التقديرات إلى قرابة المليون ونصف مدني)، وتشريد الملايين داخليًا وخارجيًا، في واحدة من أسوأ الكوارث الإنسانية في القرن الحادي والعشرين.

وقد عمِد النظام إلى تأسيس ميليشيات عسكرية من الطائفةِ العلوية، وتسليح شامل لمنتسبي حزب البعث وعسكرة شامِلة في صفوف أفراده، ليكونوا الأداة المباشرة في ارتكاب المجازر في حق الشعب السوري؛ لم يُستثن من ذلك الأطفال والنساء والشيوخ!

(١) عدنان عمران: دبلوماسي وسياسي سوري وُلد عام ١٩٣٤م، شغل منصب وزير الإعلام بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٣م، حاصل على شهادات من جامعة دمشق وجامعة كولومبيا، وكان عضوًا في حزب البعث العربي الاشتراكي.

(٢) عبد الحليم خدام: سياسي سوري وُلد في بانياس عام ١٩٣٢م، انضم إلى حزب البعث في سن مبكرة. تقلد مناصب عليا منها نائب رئيس الجمهورية ووزير الخارجية، وانشق عن النظام عام ٢٠٠٥م، ومات عام ٢٠٢٠م.

(٣) رياض سيف: رجل أعمال وسياسي سوري وُلد في دمشق عام ١٩٤٦م، أسس شركة «سيف إخوان»، ثم حصل على امتياز تصنيع منتجات «أديداس» في سوريا. انتُخب نائبًا في البرلمان، واعتُقل بسبب نشاطه المعارض خلال «ربيع دمشق».

(٤) رياض الترك: معارض سياسي ومحامٍ سوري وُلد في حمص عام ١٩٣٠م، شغل منصب الأمين العام للحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي)، اعتُقل في عهود عدة رؤساء، ولُقّب بـ«مانديلا سوريا»، ومات في باريس عام ٢٠٢٤م.

(٥) مأمون الحمصي: سياسي سوري وُلد في دمشق عام ١٩٥٦م. انتُخب نائبًا مستقلاً في البرلمان عام ١٩٩٠م. خلال «ربيع دمشق» طالب بالإصلاحات وأعلن إضرابًا عن الطعام؛ فاعتُقل وسُجن خمس سنوات، ثم نُفي إلى الخارج.

(٦) عارف دليلة: اقتصادي وأكاديمي سوري وُلد في اللاذقية عام ١٩٤٢م. حصل على دكتوراه في الاقتصاد من جامعة موسكو، شغل منصب عميد كلية الاقتصاد بجامعة حلب، وفُصل من عمله بسبب مواقفه الإصلاحية، واعتُقل عام ٢٠٠١م.

(٧) «ربيع دمشق»، ويكيبيديا، تاريخ الاطلاع: ٢٤ أيار/مايو ٢٠٢٥م، و«ربيع دمشق.. ‹العقد الضائع› الذي سبق الثورة السورية»، الجزيرة نت، ٢٨ آذار/مارس ٢٠٢٤م، تاريخ الاطلاع: ٢٤ أيار/مايو ٢٠٢٥م.

عمِد النظام إلى تأسيس ميليشيات عسكرية من الطائفةِ العلوية، وتسليح شامل لمنتسبي حزب البعث وعسكرة شامِلة في صفوف أفراده؛ ليكونوا الأداة المباشرة في ارتكاب المجازر في حق الشعب السوري؛ لم يُستثن من ذلك الأطفال والنساء والشيوخ!

ورغم الدعم الروسي والإيراني للنظام واستجلابهم محتلّين للبلاد، ورغم تمكّنهم من استعادة السيطرة على مناطق واسعة من البلاد، إلا أنّ شرعيتَه ظلّت محلّ تشكيك محلي ودولي، وظلّت مناطق من سوريا خارج سيطرته تحت حكم فصائل ثورية أو قواتٍ كردية أو تنظيماتٍ متطرفة.

ومع مرور الوقت بدأت تظهر تصدعات داخل النظام نفسه، نتيجة الضغوط الاقتصادية والعقوبات الدولية، والصمود الشعبي وقوى الثورة السورية العسكرية والسياسية والمدنية التي لم تستسلم طيلة سنوات الحرب على الشعب، وتنامي الاستياء الشعبي حتى في المناطق الموالية.

وفي ديسمبر/كانون الأول ٢٠٢٤م، وصلت هذه التصدعات إلى ذروتها، ومع انطلاق معارك التحرير في الـ ٢٧ من شهر تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٢٤م، وبعد تغيّرٍ عميق في المواقف الإقليمية والدولية من نظام البعث الأسدي، وتداعيات معركة طوفان الأقصى وما تلاها من أحداثٍ جسام وحرائقَ سياسيةٍ وعسكريةٍ كُبرَى وصلت نارها إلى دمشق؛ سقط نظام البعث بعد أكثر من ستة عقود من الحكم الاستبدادي، وبذلك طُويت صفحة من أطول وأقسى صفحات الاستبداد في تاريخ المنطقة العربية.

حصاد سنوات حكم البعث في سوريا:

لم يكن البعث في سوريا مجرّد حزب حاكم، بل منظومة طغيانية متكاملة أحكمت قبضتها على المجتمع والدولة عبر مزيج مركّب من الأمن المعمم والفساد البنيوي. فمنذ مطلع حكمه بنى الحزب دولته فوق جهاز أمني سُرعان ما خرج عن أي مأسسة قانونية، ليتحوّل إلى بنية تسلّطية تعمل خارج المحاسبة، وسجون مثل صيدنايا كانت مختبرًا للعنف السلطوي بمعناه المطلق، حيث تُستبدل العدالة بالاغتيال المقنّن[١].

- **الفساد أساسًا للحكم:** في بنية الحكم كان البعث هو الحاكم والمشرّع والقاضي؛ لذا فقد تأسس الفساد في هذا السياق لا كعارض، بل كأداة حكم. وكانت آلية القضاء والاقتصاد خاضعة للولاء، لا للكفاءة أو للرقابة[٢].
- **تأميم الطفولة والوعي:** أسس البعث منظومات كـ«طلائع البعث» و«اتحاد الشبيبة» و«اتحاد الطلبة»؛ لإنتاج فرد لا يرى الدولة إلا من زاوية الحزب، ولا يرى الحزب إلا من زاوية الزعيم، فتمّ تأميم الطفولة والوعي السياسي باكرًا.
- **الهيمنة على الدين والفتوى:** سيطر النظام على الوقف الإسلامي، وحوّل أصوله إلى مشاريع استثمارية، فيما فُرضت خطب منسقة أمنيًا على المساجد، وأُخضعت الفتوى لرقابة صارمة.
- **تدمير المجتمع الأهلي:** فكّك البعث -منذ ستينات القرن الماضي- البنى الوسيطة في المجتمع من نقابات مستقلة وجمعيات أهلية، واستبدل بها مؤسسات حزبية تابعة له تراقب المجتمع بدل تمثيله. ترافَق ذلك مع خطاب سلطوي عمّق الفجوة بين الريف والمدينة. وقد مثّلت مجزرة حماة ١٩٨٢م النموذج الأوضح لهذا النهج.
- **النهب الممنهج للثروات:** تم الاستحواذ على النفط والمرافئ والمساعدات الدولية بوسائل متنوعة، وحُوّلت سوريا إلى نموذج لـ«الدولة النهّابَة»، تعمل خارج أي نظام رقابي أو قانوني.

أسس البعث منظومات كـ«طلائع البعث» و«اتحاد الشبيبة» و«اتحاد الطلبة»؛ لإنتاج فرد لا يرى الدولة إلا من زاوية الحزب، ولا يرى الحزب إلا من زاوية الزعيم، فتمّ تأميم الطفولة والوعي السياسي باكرًا

(١) وول ستريت جورنال: مصنع الموت السوري يكشف أسراره: https://www.wsj.com/world/middle-east/syrian-prison-death-950fde96

(٢) مركز U4: الجمهورية العربية السورية: الفساد ومكافحة الفساد:
https://www.u4.no/publications/the-syrian-arab-republic-corruption-and-anti-corruption

سنوات الحرب - تدمير منهجي وجرائم موثّقة:

» **الهجمات الكيميائية:** وثّقت الشبكة السورية لحقوق الإنسان ٢٢٢ هجومًا كيميائيًا بين ٢٠١١ و٢٠٢٤م، أبرزها الهجوم على الغوطة الشرقية (٢٠١٣م) والذي أسفر عن مقتل ١٤٠٠ شخص، كما ثبت استخدام النظام لغاز السارين في خان شيخون (٢٠١٧م) ودوما (٢٠١٨م). وقد أكّدت منظمة حظر الأسلحة الكيميائية مسؤولية النظام عن هذه الهجمات رغم توقيعه على الاتفاقية في ٢٠١٣م.

» **البراميل المتفجرة والذخائر العنقودية:** أُلقي أكثر من ٨٢,٠٠٠ برميل متفجر بين ٢٠١٢ و٢٠٢٤م استهدفت المستشفيات والمدارس والأسواق، إلى جانب استخدام الذخائر العنقودية في أكثر من ٦٠٠ هجوم، خلّفت آلاف الضحايا والتلوث طويل الأمد.

» **الاعتقال والاختفاء القسري:** اعتُقل ١٥٤,٠٠٠ شخص تعسفيًا، منهم ١١٢,٠٠٠ لا يزالون في عداد المختفين، واستهدفت حملات الاعتقال النشطاء والأطباء والصحفيين لبث الرعب في المجتمع ومحاولة إسكات أي صوت معارض.

» **التعذيب حتى الموت:** وثّقت «صور قيصر» مقتل ١٥,٠٧٥ معتقلاً تحت التعذيب، فيما رصد تقرير «المسلخ البشري» الصادر عن العفو الدولية ٢٠١٧م) إعدام ١٣,٠٠٠ معتقل في صيدنايا بين ٢٠١١ و٢٠١٥م. وقد شملت أساليب التعذيب: الصعق، والشبح، والضرب المبرح، والحرمان من الطعام ومن الرعاية، والاغتصاب.

» **المجازر الجماعية:** من أبرز المجازر: مجزرة الحولة (٢٠١٢م) التي قتل فيها ١٠٨ شخصًا، ومجزرتي بانياس والبيضا (٢٠١٣م) بـ٢٤٨ قتيلًا، ومجازر الغوطة (٢٠١٣–٢٠١٨) التي أسفرت عن مقتل الآلاف، ومجازر حلب الشرقية (٢٠١٦م) بـ١٥٠٠ قتيل، وجميعها استهدفت المدنيين بشكل مباشر.

» **القصف العشوائي للمناطق المدنية:** وفق الشبكة السورية لحقوق الإنسان فإنّ النظام قد دمّر بقصف عشوائي مستمر أكثر من ١٤٠٠ منشأة طبية، و١٨٠٠ مدرسة، و٦٠٠ سوق، و٣٥٠ مخبزًا، في خرق صريح للقانون الدولي.

» **استخدام الحصار والتجويع سلاحَ حرب:** فرض النظام حصارات طويلة على العديد من المناطق المدنية مثل الغوطة الشرقية وداريا وحمص القديمة ومخيم اليرموك؛ أودت بحياة المئات جوعًا، وانتهت غالبًا بتهجير السكان بعد إنهاكهم.

» **اتفاقيات المصالحة والتهجير القسري:** أُجبر السكان على مغادرة مناطقهم عبر اتفاقيات فرضتها القوة، في داريا (٢٠١٦م)، والوعر (٢٠١٧م)، والغوطة الشرقية ودرعا (٢٠١٨م)، وقد تجاوز عدد المهجّرين -حسب توثيقات الأمم المتحدة- ١٣ مليونًا داخليًا وخارجيًا؛ في أسوأ أزمة لجوء منذ الحرب العالمية الثانية.

نهب الاقتصاد وتدمير البنية التحتية:

» **الفساد ونهب الموارد:** أُنهك الاقتصاد خلال فترة الحرب بخسائر فاقت ٥٠٠ مليار دولار، وتراجعت قيمة العملة بأكثر من ٩٩٪ من قيمتها، وتركّزت الثروة بيد فئة ضيقة على حساب أغلبية مسحوقة.

» **تدمير البنية التحتية:** دُمّرَ ٤٠٪ من البنية التحتية كليًا، وتضرر ٨٠٪ منها بدرجات مختلفة، وقد شمل الدمار محطات الكهرباء والمياه، والمستشفيات، والطرق والجسور؛ ما تسبب في انهيار شامل للخدمات.

وهكذا، ما إن ينقشع الغبار عن أنقاض عقودٍ ثقيلة حتى تتكشّف ملامح المشهد الذي طالما غلّفته الشعارات البراقة بغطاءٍ من الزيف المنهج. تتراجع الأيديولوجيا عن ادعاءاتها أمام محكمة الواقع، بينما تبقى ذاكرة الناس وحدها تحمل الدليل والجرحَ معًا. وفي فراغ ما بعد السقوط، لا يُنتظر من الركام سوى ما يليق بالبدايات الجديدة: اختبار الحقيقة خارجَ معاجم القهر، وإعادة تعريف الدولة خارجَ معسكراتِ الطغيان.

تحديات تواجه المشهد الدعوي الشامي

د. فيصل البعداني (*)

الشام أرض مباركة ذات أهمية قصوى في أحداث آخر الزمان، يدرك أعداء الأمة خطرها ويسعون لعرقلة الحراك الدعوي فيها، ويواجه المشهد الدعوي في الشام تحدّيات كبرى؛ كالانشغال بدائرة الاهتمام على حساب دائرة التأثير، والقابلية للاختلاف والتنازع، وضعف روح المبادرة، ونقص التمويل؛ مما يوجب سرعة التعامل مع هذه التحديات، وإيجاد الحلول لها.

تقع سوريا في قلب بؤرة الصراع الحضاري بين أهل الإسلام وأعدائهم في آخر الزمان، وقد جاء في شرفها وبيان خطرها وعِظَم صالحي أهلها نصوص صحيحة عدة، فهي أرض خير مباركة مدعو لها، فقد ورد: (اللهمَّ بارك لنا في شامِنا) ثلاثًا[١]، و(طُوبى للشام، قلنا: لأيّ ذلك يا رسول الله؟ قال: لأنَّ ملائكةَ الرحمن باسطةٌ أجنحتها عليها)[٢]، و(إني أختار لك الشامَ؛ فإنها صفوة الله من بلاده، وإليها يجتبي صفوته من عباده، يا أهل اليمن فعليكم بالشام، فإنما صفوة الله من الأرض الشام)[٣]، وهي خير الأرض وموضع أهل الإيمان حين تقع فتن آخر الزمان، فقد ورد: (الإيمانُ حينَ تقعُ الفتنُ بالشام)[٤]، وفساد أهلها بوابة شر عظيم على الأمة، كما جاء في الحديث: (إذا فَسَدَ أهل الشام فلا خير فيكم)[٥].

وأعداء الأمة يدركون ذلك أكثر بكثير مما يدركه كثير من أبنائها؛ ولذا فهم يبذلون جهودًا مضادة تسعى إلى إعادةِ احتواء المشهد الشامي ليعود مظلمًا كما كان في عهد دولة البعث، ومنعِ أي حراك دعوي فاعل داخلها؛ حتى لا يتم توسيعَ

(*) باحث، عضو الهيئة العليا لحزب الرشاد اليمني

(١) أخرجه البخاري (٧٠٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٥٤).

(٣) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٥٤٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٧٣٣).

(٥) أخرجه الترمذي (٢١٩٢).

نطاق المعرفة الشرعية، ولا تعميق التدين الحق وزيادة مظاهره هناك، ولا توحيد كلمة دعاتها على كلمة سواء ورؤية سواء وإطار عملي سواء يتمكن من تجاوز مخططات إنهاك الدعوة وتمزيق أهلها، وتشتيت جهود دعاتها وإلهائهم بأنفسهم بدل أمتهم، ومشاريع إلهاء طلبة العلم هناك بمجالات هي أقرب للعبثية، وبجوانب مما لا ينفع الخوض فيها الناس في الأرض.

وإيماني كبير بأنّ الوقت في هذا الصراع الضخم ليس في مصلحة الدعاة البتة، وأنّ كلّ لحظة تمضي منه فالصعاب بعده تكثر، والعوائق تتعاظم، وتكلفة التنفيذ ترتفع، وفرص النجاح تتعقد وتقل، وهو ما يجعل من تسريع وتيرة العمل الدعوي العام في كافة جوانبه ضرورة، والعمل على تجويده وتوسيعه وتجذيره في المجتمع، ومسابقة الزمن في ذلك؛ يأتي في قائمة الأولويات. وكلما نجح الدعاة في ذلك اتسعت دائرة الأمل، وكلما أخفقوا -فقلَّ العطاء، وضعفت الحركة والفعل- خفتت أنوار الأمل.

أعداء الإسلام يدركون أهمّية الشام بالنسبة للأمّة أكثر مما يدركه كثير من أبنائها؛ ولذا فهم يبذلون جهودًا مضادة تسعى إلى إعادةِ احتواء المشهد الشامي ليعود مظلمًا كما كان في عهد دولة البعث، ومنعِ أي حراك دعوي فاعل داخلها

ومع أنّ الحالة الدعوية الشامية -بحمد الله وفضله- يكثر فيها الصادقون الأغيار الحريصون على تقوية المشهد الدعوي وتجذيره ونجاحه النوعي والكمي، وتعظم فيه الفرص الدعوية بل وتتزايد، وأصحاب القدرات والخبرات الراغبون في الممارسة والفعل جد كثر؛ إلا أنّ الساحة الدعوية هناك تواجه جملة من التحديات والإشكالات الضخام، لعل من أبرزها:

أولاً: دائرة الاهتمام أم دائرة التأثير؟

اشتغال كثير من أهل الدعوة هناك -كما يقول صاحب كتاب العادات السبع- بـ«دائرة الاهتمام» على حساب «دائرة التأثير»، وتوجّه كثير منهم إلى التنظير والحديث عن الأولويات والفرص -التي لا يمكن للكثيرين فعلها وإن قدر الواحد منهم على فعلها لم يمكنه جمعها- على حساب المبادرة إلى الفعل، وهو ما أدّى إلى تكثير المشرفين -كما يقولون- على حساب الأساتذة، وأقحم كثيرين في جوانب ليسوا من أهلها ولا عناية لهم بها، وأضعف التخصص والتركيز والتكامل -والذي لا نجاح لأي عمل من دونه- وشتت الجهود، وأخّر البدء في الأعمال، وفوّت العديد من الفرص والمساحات التي كان بإمكان الدعوة كسبها وتقديم شيء ذي بال لو أنّ حملتها بادروا إلى الفعل الفاعل.

ولو أنّ كلّ مؤسسة دعوية، أو حتى داعية، بدأ الفعل في جانب يُحسنه ويرى أولويته وعِظم حاجة المشهد إليه، ثم أخذ في تطوير أدائه وتجويده، وتوسيع خارطة انتشاره في ثنايا ممارسته له؛ لكان ذلك أسدَّ للفراغ، وأنفع للعباد، وأمكن للدعوة؛ فإنّ من أعظم شروط النجاح: التركيز، والمبادرة، والقدرة على استثمار الفرص، والإسهام في تقديم نماذج فعل ناجحة ومحفِّزة للمتفرجين الراغبين في المشاركة والعمل.

ثانيًا: القابلية للتنازع والاختلاف:

مع قوة أهل الشام، وعِظم جدّيتهم، وشديد بأسهم، وإخلاصهم في العمل متى اقتنعوا، إلا أنّ القابلية بينهم للتنازع والاختلاف والبعد عن نهج الوفاق كبيرة، والتصلّب بينهم في الآراء والمواقف عالية، ومراعاتهم للنفسيات والخواطر منخفضة، والتدقيق بينهم في التفاصيل على حساب النظر الكلي سِمة، حتى قيلت عنهم تلك الكلمة الجائرة في تعميمها: الشاميان كسيفين في غمد واحد، لا يجتمعان إلا لنظام نافذ أو قانون حاكم.

وهو ما يحتم على كبار العقلاء والحكماء من العلماء هناك، وكبار الدعاة والمفكرين، أن يطرحوا رؤية جامعة تعمل على تشجيع المبادرة، وسد الفراغ الدعوي في كلّ منطقة، وأن يختاروا من أهل العلم والصدق والدعوة في كلّ بلدة مَن يكون رمزًا يصلح لقيادة المشهد، والتصدر لتحفيز الدعاة ودلالتهم على أولويات الدعوة وتوجيههم نحو الممارسة والفعل.

وبالتأكيد فلست أتحدث عن الفعل الدعوي الرسمي على أهميته، بل عن الجهد الشعبي العام المستقل، والذي يُعد منذ بدء تاريخ الأمة الطويل هو الحامل الحقيقي لمجالات التعليم والدعوة والتربية في مجتمعات المسلمين. ويزداد هذا الأمر أهمية في ظل تفاعل كثير من أبناء الأمة في الخارج

السوري مع المشهد الدعوي العام هناك بعد فترات طويلة من الحرمان في ظل دولة حزب البعث حتى سقوطها، وفي ظل غياب الجماعات الإسلامية عن الفعل في الجملة، وبقائها في واقع هي فيه أقرب إلى التاريخ والهياكل منها إلى الممارسة والقدرة على التأثير والفعل.

وفي ظني.. أنّ الدعوة هناك ما لم تولِ اجتماع الكلمة ورصّ الصف -أو أقله التكامل والتنسيق والتقارب بين جماعات الصادقين- ما يستحق من جهد وتخطيط واهتمام، وما لم تُسهِم بفاعلية كبيرة في صناعة رموز ميدانية (مجالس / قيادات دعوية) ممن يجتمع فيه العلم والحكمة والقدرة الحقيقية على المباشرة والنزول إلى الميدان بصورة فاعلة؛ لتسهم بفاعلية في قيادة المشهد وتفعيله والإسهام في تصويبه وحمايته، بعيدًا عن الأسماء والمؤسسات التي غادرت الميدان أو خفَّت حركتها لانشغال أو هجرة أو تقدم عمر؛ فإنّ الدعوة -مهما علا الصوت وكثر الضجيج- تفقد فرصها الكبيرة على التأثير والإسهام الفاعل في قيادة المشهد بصورة مفزعة يومًا بعد آخر، بل ويمكن القول -من دون مجازفة- بأنها لن تتقدم البتة -وحالتها هذه- بالصورة المطلوبة.

على كبار العقلاء والحكماء من العلماء والدعاة والمفكرين من أهل الشام أن يضيّقوا فرص حصول النزاع والخلاف بين الدعاة، وأن يطرحوا رؤية جامعة تعمل على تشجيع المبادرة وسد الفراغ الدعوي في كافّة المناطق، وأن يختاروا في كلّ بلدة مَن يكون رمزًا يصلح لقيادة المشهد والتصدر لتحفيز الدعاة ودلالتهم على أولويات الدعوة وتوجيههم نحو الممارسة والفعل

ثالثًا: الانتظار وضعف روح المبادرة:

أدت قولبة المجتمع السوري من خلال سياسة القمع التي مورست ضده في العهد البائد وعمله الدؤوب على مصادرة قرار المجتمع منه وتجريده من حريته؛ إلى قتل روح المبادرة لدى كثير من أفراده، وانتظار الجميع -في الجملة- الإذن في الفعل، وإن كان من حقهم الأصيل شرعًا وعقلاً البدء به.

أدّت سياسات القمع التي مارسها النظام البائد إلى قتل روح المبادرة لدى كثير من أفراد المجتمع، وانتظار الجميع -في الجملة- الإذن في الفعل، وإن كان من حقهم الأصيل شرعًا وعقلاً البدء به

والجانب الدعوي مما لحقه الضرر الكبير في هذا الباب نتيجة التدجين القسري الذي مورس على الدعاة في الفترة التي ولَّت، مع أنه في الأصل من واجبات المجتمع وحقوقه، والذي لا يحتاج فيه الفرد إلى إذن من أحد كائنًا مَن كان، والمفترض أن يقتصر فيه واجب الجهات الرسمية على المساعدة والتسهيل، ومساعدة العلماء الكبار الموثوقين في الحيلولة دون الشذوذ والتمزيق، لا احتكار القرار وامتلاك حق تنظيم الفعل. وما لم يتنبه القائمون بالشأن الدعوي العام إلى أهمية امتلاك المجتمع الدعوي لحقه في المبادرة والفعل، وما لم يُبادروا إلى تنظيم أنفسهم والتخطيط لأنفسهم بأنفسهم، وإلى امتلاك رؤيتهم وتنسيق حركتهم وقرارهم بعيدًا عن أي تغوُّل رسمي؛ فإنهم بسبب ذلك التقصير هم مَن سيجعل من الدعوة أسيرة لقرار هذا المسؤول أو ذاك، وحتى وإن سمح لها المسؤول الحالي، فقد يمنعها مَن يخلفه. ومَن لا يملك حرية قراره، فلن يملك حرية حركته واستقلاله في طرح كلمته.

بل ويمكن القول بجلاء في هذا الجانب أنّ الاستمرار في ربط الجهد الدعوي العام بالمؤسسات الرسمية يمكن أن يكون أعظم كارثة تحل على الدعوة في أرض الشام، لدور ذلك في تحجيم الدعوة والحد من تجذرها في المجتمع واتساعها، بل وقد يكون ذلك خطأً استراتيجيًا يقع فيه مجتمع الدعاة في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الشام الخطير.

رابعًا: ضعف التمويل:

ضعف التمويل من أعظم عوائق الممارسة الدعوية الكبيرة والنشطة، فالدعاة وطلاب العلم هناك من أفقر الناس في الجملة، وقدرتهم على الحركة وتمويل الفعل الكبير جد محدودة، ولخطورة هذا الجانب يحسن تسجيل النقاط الآتية:

» التنبيه إلى أنّ النظام السابق قد سقط، ولكن لم تسقط بعد قراراته في تأميم الأوقاف وسلب

المجتمع حريته في الدعوة والتعليم، وهو ما يوجب على الجميع العمل الدؤوب على عودة الأوقاف الكثيرة إلى القيام بدورها العظيم -الذي كانت تقوم به قبل تأميمها من نظام البعث- في نشر التعليم والدعوة، والتنبه إلى أنّ الفرص تزول، والأيام تتبدل، وممكن اليوم قد لا يبقى ممكنًا في الغد.

- أنّ المال غالبًا ما يفرق الناس أكثر مما يجمعهم، وأنّ مَن يملك المال غالبًا ما يملك القرار، وينفرد بصناعة المشهد وتشكيل رؤيته وفرض اجتهاداته على أهل الميدان، بعيدًا عن تقدير احتياجات دعوتهم وما يتناسب مع قدراتهم والظرف الذي يعيشونه، هذا إن لم يصل به الحال إلى فرض مَن يقود المشهد ممن لا يقوده، ومَن يعمل في الميدان ممن لا يعمل.
- خطورة التمويل الخارجي المشبوه للمؤسسات الدعوية والنشاط الدعوي، وأنّ أعظم دور له هو توسيع الشقة بين الدعاة، والاشتغال بجوانب جدلية لا صلة لها برفع ما قد يوجد في المجتمع من مظاهر أمية، ولا بتعميق التدين في المجتمع، ولا برعاية جادة لأهل العلم والميدان دعويًا وتربويًا.
- أن يبقى دور التمويل الخارجي الصديق -إن صحت التسمية- بعيدًا عن جانبين، أولهما: رسم العمل وتشكيل خارطته؛ لأنّ تشكيل الرؤية دور منوط فقط بالقيادات الدعوية في الميدان لكونها الأقدر والأعرف باحتياج الساحة. ثانيهما: تحمُّل كلفة التشغيل بداعي كفالة الدعاة، لأنّ نتيجته الكارثية ستكون: إفقاد الدعاة لمواردهم المحلية، ونقلهم في حال تحسُّن دخلهم إلى مستويات معيشة أعلى، فإذا انقطع التمويل -وحتمًا سينقطع في يوم آتٍ- فالنتيجة ألّا دخل يملكه الدعاة؛ وبالتالي دخولهم القسري في سوق البطالة، وحتى لو عادت لبعضهم مواردهم السابقة فإنها لم تعد تكفي لسد حاجتهم وحاجة أسرهم الكبيرة. ولذا ينبغي أن تسعى المؤسسات الدعوية إلى توجيه التمويل إلى تأسيس المشاريع المتنوعة لا إلى تشغيلها في الجملة، وإلى إقامة أوقاف ناجحة تمكِّنها من الاستمرار في أداء رسالتها وكفالة القائمين عليها.
- ضرورة أن يعي الدعاة في الميدان جيدًا أنّ الأمّة عبر تاريخها الطويل قام على نشر دعوتها تجّارها المتنقلون بين الأصقاع، وأنّ عامة علماء الأمة ودعاتها كانوا يجمعون مع الدعوة والتعليم الترزّق والاكتساب، فكان منهم الزجّاج والنحّاس والبزّاز والدقّاق والورّاق والزرّاع واللّحام والورّاق والقاضي والوزير، ولم تكن الكفالة موجودة إلا في أقل القليل، وبما لا يؤثّر في موقف أو يحدّ من بيان.

ينبغي أن تسعى المؤسسات الدعوية إلى توجيه التمويل إلى تأسيس المشاريع المتنوعة لا إلى تشغيلها في الجملة، وإلى إقامة أوقاف ناجحة تمكِّنها من الاستمرار في أداء رسالتها وكفالة القائمين عليها

خامسًا: المحافظة على الطابع الشامي الخاص:

من الأهمية بمكان أن تبقى الدعوة شامية النكهة، مع مرونتها العالية تجاه تقبّل كلّ مفيد، وقابليتها المستمرة للتجدد والتطور والانفتاح على تجارب الآخرين. ويتأكد هذا الأمر في ظلّ تداعٍ كبير من الدعاة في كلّ مكان على إحياء المشهد الدعوي الشامي، وفي ظلّ مخططات كبرى من أعداء الأمّة وطلائعهم في الإقليم لوأد الدعوة الإسلامية في الشام، والعمل على حرفها وتشويهها ومنع قيامها بما يجب كما يجب.

وهذا ما يحتم على الدعاة أمورًا، منها:

- ضرورة أن يبقى العقل الدعوي من خارج الشام تابعًا ومساندًا بحسب رؤية أهل الشام واحتياج أهل الشام، لا مؤسسًا ولا قائدًا.
- ضرورة توطين التعايش بين أهل المذاهب الإسلامية العقدية والفقهية والسلوكية، وأن يبقى النهج نهج حوار مع الاحترام، والقبول بوجود الآخر، لا أن تتحول الجهود من جهود تعليم الإسلام وتمكينه والدعوة إليه ووقاية الأمّة من الضلال البيِّن، إلى جهود عنيفة في الصراع بين أهل الإسلام لمجرّد الاختلاف بين أهل الصدق والتنزيه وتعظيم الله جل في علاه والرسول الكريم ﷺ في هذه المسألة أو تلك، والتي قتلت بحثًا من مئات السنين، وعُرفت رؤية أهل كلّ مذهب فيها.

» العمل بكلّ جهد على كفّ السفهاء ومثيري الفتنة من هذا الطرف أو ذاك؛ فمعركة أهل الإسلام في أيامنا هذه هي معركة وجودية لا تحتمل بحال تسيد مثل هذه المعارك الثانوية للموقف ولا هيمنتها على العاملين في الميدان. ولو أنّ عقلاء الناس خرجوا بوثيقة تأصيلية تضبط المشهد، وتَحول دون ضرب الاتباع تحت أردية ضرورة الاجتماع، أو ضرب الاجتماع تحت شعار تعظيم الاتباع -كما فعل علماء نجد والحجاز في بدايات تأسيس الدولة السعودية الثالثة في وثيقتهم الشهيرة بنداء علماء البلد الحرام، وكما فعل علماء الشافعية والزيدية في صنعاء اليمن في بدايات الجمهورية بالاتفاق على كتاب الإيمان للزنداني وعلى تدريس فقه الشوكاني في المعاهد العلمية ومدارس التعليم العام- لكان في ذلك خير كثير.

» الحذر من أعداء الدعوة المرتبطين بجهات خارجية مشبوهة، تسعى للتمزيق وتشتيت الجهود، واستهداف البرامج الدعوية الجادة بكلّ وسيلة بألبسة الدعاة، وباسم مصلحة الدعوة.

» الحذر من جماعة التملق للرسميين وتقديسهم –واقعًا لا قولاً– وتزيين كلّ قرار بالمطلق، ووأد النصح، وغلق باب النقد أو تجريمه واقعًا، وتبرير كلّ خطأ أو زلل؛ فإنهم -بعيدًا عن النوايا- كثيرًا ما يكونون أعداء في ثياب أهل الغيرة والصدق وحماة النهج والدعوة، وصيانة المكتسبات، والحفاظ على المصلحة، ويا لله، ما أعظم خطرهم وأقبح شرهم، لا كثّرهم الله تعالى.

من الأهمّية بمكان أن تبقى الدعوة شامية النكهة، مع مرونتها العالية تجاه تقبّل كلّ مفيد، وقابليتها المستمرة للتجدد والتطور والانفتاح على تجارب الآخرين

سادسًا: الانخراط الواسع في تفاصيل الميدان:

وهو مما قد يقود الداعي وطالب العلم إلى تبرير المشهد وتسويغه وترك نقده، بل وتخطئة أو تجهيل منتقديه، مع ما فيه من حالة صواب وخطأ، وخير وشر، وحالة فعل بعض الشر تجنبًا لما هو أشر، وتجاوزٍ تحت غطاء المصلحة أو أردية الضرورة على حساب بيان الحق المحض الذي يريد الله من عباده امتثاله، وهذا كلّه قد ينقله -متى تحول مَن موقّع عن الله إلى مجرد مسوغ بالمطلق للمشهد ومسوق للقائمين عليه- إلى ملبّس للحق بالباطل؛ حتى وإن لم يرد ذلك.

ولو أنّ بعض أهل العلم عنوا ببيان الحقّ الأصلي العام الذي يريده الله من عباده، وحتى لا يحصل خفاؤه، وعُني مَن يتصدر منهم للفتيا في الضرورات بذكر قيودها الناصّة في فتياه على طبيعة الحالة ومقدار الضرورة فيها، مع الإشارة إلى أنّه لا يجوز تعميم الاستثناء -اللحظي أو الشخصي- ولا تحويله إلى أصل دائم في كلّ وقت أو لكلّ شخص أو حتى للشخص المفتى له؛ متى اختلفت حالته مع مرور الوقت عن الحالة التي أفتي بها حتى يرتفع توهّم وجود تلبيس أو تناقض أو بيع ذمم، وحتى لا يعود ذلك على الأصل بالنقض -في ذهن الشباب والعامة- فتسقط الثقة بالعالم مع مرور الوقت من ذهن مستمعيه وعامّة المتلقين عنه.

وختامًا:

تجذير العمل الدعوي في الشام الحبيب ضرورة ملحة؛ فالأعداء كثر، والتحديات ضخام، والمسألة تحتاج إلى تجرد ونيّة نقية، وهمّة عالية، ومثابرة مستمرة. وتتطلب قوة وحكمة عالية، واجتماع كلمة، وتفرض امتلاك رؤية استراتيجية عميقة، ووجود تخطيط تنفيذي طموح ومرن، وتوجب وجود تقويم دائم ومراجعات مستمرة، وتحتم التركيز والتخصص، مع مسارعة ومسابقة وامتلاك مبادرات عملية غير منتهية.

والله الهادي.

العلاقات الدولية (الإيرانية الإقليمية)، من منظور المفكّر نبيل خليفة

د. محمد بن عبد الله السلومي (*)

يرى المفكر نبيل خليفة أن المشروع الإيراني ليس مشروعًا دينيًا بقدر ما هو توسعي سياسي يخدم مصالح الغرب وإسرائيل بتفكيك الكتلة السنّيّة وإضعافها، حيث تستثمر طهران الطائفيةَ والقضيةَ الفلسطينية وغيابَ مشروع سنّي جامع لتعزيز نفوذها الإقليمي، ويدعو خليفة إلى ولادة مشروع سنّي سياسي عصري يواجه هذا التمدّد، فالعلاقات الإيرانية محكومة بخطط استعمارية تتقاطع مع مطامع إيرانية تاريخية وعدوانية.

عُرف الباحث اللبناني المسيحي الدكتور نبيل خليفة خريج جامعة السوربون بصورةٍ أكثر من خلال كتابه (استهداف أهل السنة) الذي نَفَدَ من سوق الكتاب بطبعاته المتعددة، وَوُصف كتابه هذا بحياديته العلمية وإنصافه في القراءة عن العرب والمسلمين، بل وعن الإسلام وتاريخه بالرغم من اختلاف ديانته، حتى إنه أشاد بالتاريخ الإسلامي كأنموذج بمعظم تطبيقاته مع حقوق الأقليات، فهو يرى أن سلام المسلمين السنة هو سلام لكل الأقليات في العالم الإسلامي عبر تاريخ الإسلام، وذلك عند كتابته عن المشروع العالمي للمنطقة في القرن الواحد والعشرين حينما قال: «إن استراتيجية الغرب وإسرائيل اليوم في الشرق الأوسط مبنية على نظام إقليمي تفكيكي جديد يستجيب لمصالح الغرب وإسرائيل في المنطقة، وفيه مجال واسع لضرب وتفكيك العالم الإسلامي بإدخاله في الفتنة الشيعية – السنية، وأضفت منبهًا ومحذرًا: نحن المسيحيين كنائس حدودية، ولكننا لسنا ولا ينبغي أن نكون حرس حدود، لا لإسرائيل ولا للغرب، ومن واجبنا العمل لمنع كل فتنة بين المسلمين؛ لأن سلام المسلمين هو سلام لنا أيضًا»[1].

(*) باحث في الدراسات التاريخية ودراسات العمل الخيري والقطاع الثالث.

(١) استهداف أهل السنة، للدكتور نبيل خليفة، ص (٩).

ولم تكن كتابة نبيل خليفة عاطفية، فقد كانت نتيجة قراءات فكرية وسياسية وتاريخية متعددة حين إقامته في باريس، وقبل عودته إلى لبنان، وهي جهود ومسؤوليات علمية صحبت دراسته الأكاديمية وما تلاها، كما صحبت بداية الثورة الإيرانية التي انطلقت من باريس إلى طهران عام ١٩٧٩م، وقد أشار إليها في مقدمة كتابه المعني هنا، وذلك بشيءٍ من التفصيل.

تقاطع في الاستراتيجيات العالمية:

اتسم كتاب خليفة الخبير بالواقع السياسي العالمي والإقليمي والمؤلف لكتاب (استهداف أهل السنة)، بشيءٍ من الكشف والتشخيص للاستراتيجيات المستقبلية لما يسمى (النظام العالمي الجديد) و(الشرق الأوسط الجديد) من خلال ما كتبه عن الاستراتيجية العالمية للمنطقة، وفيها أن إيران الثورة تُعدُّ مشروع احتلال وتوسع سياسي وعسكري؛ حيث تحتل حاليًا ثلاث عواصم عربية بعد سقوط النظام الأسدي بدمشق آواخر عام ٢٠٢٤م، مع ما صَحِبَ ويصحب هذا من القتل والتدمير والتهجير لأهلها[١]، وهذا المشروع ليس مشروعًا صديقًا للغرب بصورةٍ مباشرة، لكنه ليس مشروعًا معاديًا للمشروع الغربي الصهيوني الذي تتربع على عرشه أمريكا، بل إن المشروع الإيراني يتخادم ويتماهى مع الغرب بناءً على المصالح المشتركة والمتحققة لكلا المشروعين، وهذا ما يحكم طبيعة العلاقة الإيرانية الإقليمية المتوترة في الغالب.

ويرى خليفة أن هذا الاستهداف الكبير لأهل السنة ودولهم تتقاطع فيه المصالح العالمية والقوى الدولية والإقليمية مع المطامع الإيرانية، وهو ما انعكس على العلاقات الإيرانية مع العالم العربي ودول الخليج بصورةٍ خاصة، وذلك بقوله: «أهل السنة في مواجهة العالَم: في مواجهة العالَم المسيحي بفروعه: البروتستنتية (الولايات المتحدة وألمانيا)؛ وفرعه الكاثوليكي (فرنسا وإيطاليا وأوروبا)، وفرعه الإنغليكاني (بريطانيا)؛ وفرعه الأرثوذكسي (روسيا). وخلاصته أن الكتلة السنية هي في مواجهة مع الحضارة الغربية المسيحية!

- وفي مواجهة مع العالَم اليهودي: إسرائيل وأجهزتها السياسية والأمنية والعسكرية والاقتصادية... والصهيونية وامتداداتها في كل أنحاء العالم.
- وفي مواجهة مع العالَم الشيعي - الإيراني بكل أهدافه ومطامحه ومطامعه لتزعُّم العالم الإسلامي، وفرض سيطرته الكاملة على شرقي المتوسط.
- وفي مواجهة مع العالَم الهندي: استمرارًا للصراع الهندي الباكستاني حول الانفصال وحول كشمير، وحول الكتلة السنية في الهند وهي في حدود ١٥٠ مليون نسمة فقط!
- وفي مواجهة مع العالَم الصيني: انطلاقًا من مشاكل مقاطعة كنغ سيانغ (Xinziang) على امتداد ١.٢ مليون م٢، في غرب الصين، وما يزيد على ٥٠ مليون مسلم يشكلون أزمة للمجتمع الصيني الذي يخشى من امتداد العالم الإسلامي داخل الصين»[٢].

ويذهب خليفة بكتابته إلى أن الكتلة السنية -التي تُشكِّل ٨٥٪ من مسلمي العالم- مُستَهدفٌ رئيس من هذه القوى العالمية وعلى رأسها إيران، وهو ما يكشف عن حقيقة العلاقة الدولية العدائية من إيران تجاه المسلمين في محيطها الإقليمي، وهذه العداوة ثوابت وأهداف تلتقي فيها الأطماع والمصالح الغربية مع الإيرانية، والتي لا يمكن تحقيقها مع هذا الوجود السُّني الكبير والقوي في المنطقة، وذلك بقوله: «ثلاثة أهداف أساسية كبرى يُراد تحقيقها: أولها: إزاحة النفوذ السني عن دول شرقي المتوسط واستبداله بالنفوذ الإيراني الشيعي، وثانيها: إدماج إسرائيل كجسم طبيعي في المنطقة ضمن دولة كونفدرالية، وثالثها: السيطرة على نفط العراق: أفضل وأغزر نفط في العالم (٣٨٠ مليار برميل بحسب آخر التقديرات)»[٣].

والمؤلف نبيل خليفة يَعدُّ البُعد العقدي لإيران والأقلية الشيعية من خلال مرجعية الولي الفقيه وسيلة لتحقيق الغايات السياسية؛ حيث البُعد السياسي الذي يُعدُّ الأخطر في المشروع الإيراني، فالتشيع السياسي هو ما يخدم البُعد السياسي الإيراني كما هو واقع علاقة بعض الدول والحركات الإسلامية المنخدعة بدولة إيران.

(١) استهداف أهل السنة، ص (٢٨) بتصرف.
(٢) المرجع السابق، ص (١١-١٢).
(٣) المرجع السابق، ص (١٣).

وتتوافق هذه الرؤية عند خليفة مع ما أورده المفكر هشام ناظر حول استغلال الأقليات في صناعة الاضطرابات وتفتيت الدول والمجتمعات؛ حيث يتم استغلال وتأجيج التنوع العرقي والديني في الدول المُستهدَفة لإشعال فتيل الضغط والابتزاز السياسي والاقتصادي والحرب أحيانًا، فيقول ناظر: «وفي مناخ من الاضطرابات المتزايدة الناتجة عن عدم الرضا السياسي والاقتصادي، فإن وجود أكثر من ثلاثة آلاف مجموعة إثنية حول العالم سوف يُمهِّد بشكل انتقائي لمبررات دائمة للتدخل بحجة حماية حقوق الفرد»[١]، وبهذه الإثنية العقدية تتشكل طبيعة العلاقات الإيرانية الإقليمية خاصةً مع دول الجوار.

> **يرى المفكر نبيل خليفة أن هذا الاستهداف الكبير لأهل السنة ودولهم تتقاطع فيه المصالح العالمية والقوى الدولية والإقليمية مع المطامع الإيرانية، وهو ما انعكس على العلاقات الإيرانية مع العالم العربي ودول الخليج بصورةٍ خاصة**

المشروع الاستراتيجي الإيراني:

يرى خليفة في كتابه أن العلاقات الإيرانية الإقليمية مبنية وقائمة على استغلال وتوظيف ما سبق، بل وتوظيف القضية الفلسطينية كرافعة تاريخية؛ حيث كَتَبَ قائلاً: «إن الاستراتيجية الإيرانية الهجومية -ومعها النظام السوري وحزب الله والقوى الشيعية النابعة من اضطهاد تاريخي- هي استراتيجية مبنية على الألم، ولذا فهي تستخدم كل أساليب الذكاء والدهاء والرياء، مدعومة من قوى دولية، ومستخدِمةً كل إمكانات وإمكانيات الطاقات الشيعية للسيطرة على الهلال الخصيب كمدخل للسيطرة على العالم العربي الإسلامي، ومتخذة القضية الفلسطينية كرافعة تاريخية لتحقيق هذه السيطرة»[٢].

ويوضح بصورةٍ أدق عن المشروع الاستراتيجي الإيراني بقوله: «استغلال القضية الفلسطينية -القضية الإسلامية بامتياز- كرافعة تاريخية للإسلام الشيعي بواسطة حزب الله، ورفع شعار القدس في مواجهة مكة المكرمة»[٣].

ويؤكد خليفة أن إيران مستثمر كبير للتاريخ بصناعة العداوات التاريخية، وتأجيج الطائفية في الخليج العربي بصورةٍ خاصة، لا سيما مع غياب أي مشروع حالي أو مستقبلي للكتلة السنية في العالم العربي والإسلامي، خاصةً أن الخليج -حسب قوله- هو المنطقة الأقل استقرارًا على الكرة الأرضية، والشرق الأوسط هو بؤرة تفجير العالم، وما ذلك إلا لاحتوائه ثروات نفطية هائلة، مع تشابك النزعات القومية والدينية فيه وحوله[٤].

بل إن خليفة يُفسِّر حقيقة الحرب الإيرانية العراقية (١٩٨٠-١٩٨٨م) وأنها حرب مبادئ وثوابت عقدية، ليكشف بهذا حقيقة العلاقة الإيرانية الإقليمية وما يُفتعل فيها وبها من أزمات، وذلك بقوله: «إن حرب الثماني سنوات (١٩٨٠-١٩٨٨) بين العراق وإيران لم تكن كما يقول إيف لاكوست على (عشرة أمتار في شط العرب)، بل على حدود تاريخية بين عالمين: عربي وفارسي، وحدود دينية بين مذهبين: السنة والشيعة، وهو صراع يأخذ اليوم معاني جديدة وأبعادًا جديدة، في ظل المعطيات الجديدة التي تواجهها المنطقة والعالم»[٥].

فالمشروع الإيراني بأهدافه وملامحه، يتعارض بصورة كلية مع إقامة علاقات دولية ودبلوماسية تقوم على تبادل الثقة والتسامح والاستقرار والسلام، وذلك كما يقول خليفة عن الهدف: «إقامة شرق أدنوي أقلّوي [قائم على الأقلية] خالٍ من النفوذ السني، ومحكوم بالنفوذ الشيعي الإيراني برضى إسرائيلي ودعم غربي - روسي»[٦].

ويؤكد خليفة مُكررًا أن طبيعة هذه العلاقات الإيرانية العربية والإسلامية محكومة بمشروع أكبر يخدم مصالح القوى العالمية، والذي يُلخِّصه

(١) القوة من النوع الثالث، لهشام ناظر، ص (١٢٠).
(٢) استهداف أهل السنة، ص (١٥).
(٣) المرجع السابق، ص (٢٥).
(٤) المرجع السابق، ص (١٧) بتصرف.
(٥) المرجع السابق، ص (١٧-١٨).
(٦) المرجع السابق، ص (٢٩).

بقوله: «إنه عملية اقتلاع مذهبي مجتمعي متبادَل بين قوى مذهبية ودينية إقليمية ودولية، للسيطرة على الشرق الأوسط وإسقاط حدود جديدة فيه وعليه»[١].

وهو يُعبِّر عن سر نجاح المشروع الإيراني واستمرار مخاطره الإقليمية بقوله: «وقد نجحوا إلى حدٍّ كبير في ذلك بسبب ضعف المناعة في الجسم السني، وهو ضعف عائد لافتقارهم إلى مشروع سياسي عصري»[٢]، وهو ما يُكرره كثيرٌ من الباحثين في الشأن السياسي، ولهذا فإن من الخطأ السياسي الرهان على ما حدث في سوريا من سقوط في الشهر الأخير من عام ٢٠٢٤م للنظام الأسدي المرتبط بإيران، أو ما حدث لحزب الله الشيعي اللبناني من إضعاف وضرب عسكري إسرائيلي ومقتل لقيادته.

يؤكد المفكر نبيل خليفة أن إيران مستثمر كبير للتاريخ بصناعة العداوات التاريخية، وتأجيج الطائفية في الخليج العربي بصورةٍ خاصة، لا سيما مع غياب أي مشروع حالي أو مستقبلي للكتلة السنية في العالم العربي والإسلامي

والسؤال الكبير: هل يُمكن لكتابة الدكتور نبيل خليفة ومفاهيمها السابقة أن تتأثر أو تضعف مصداقيتها بعد انكسار إيران في حوادث التأديب الأمريكية الإسرائيلية لأطرافها وأجنحتها من الميليشيات والأحزاب في لبنان والعراق واليمن بعد ٧ أكتوبر عام ٢٠٢٤م؟ وهل ما حدث لإيران ذاتها في ١٣ يونيو ٢٠٢٥م من ضربات عسكرية جوية قوية موجعة من الكيان الإسرائيلي على مدى ١٢ يومًا استهدفت مفاعلاتها النووية ومقتل مجموعة من علمائها النوويين، ومقتل آخرين من قياداتها العسكرية سوف ينهي المشروع الشيعي الكبير؟ ثم هل سقوط النظام الأسدي في سوريا سوف يُفشِل خطط إيران الاثني عشرية ومخططاتها الثورية التوسعية ومشروعها الشيعي العالمي الكبير؟

إن من يقرأ في تاريخ وعقائد الباطنية الشيعية بكُمونها وظهورها، وانتصارها وانكسارها عبر التاريخ، ومن يتأمل خطة إيران الخمسينية بمراحلها ومشروعها، ومن يتأمل ما كتبه نبيل خليفة كذلك من استهداف مشترك لأهل السُّنة، ويستوعب كذلك ما ورد في كتاب (حلف المصالح المشتركة - التعاملات السرية بين إسرائيل وإيران والولايات المتحدة) لمؤلفه الباحث الأمريكي تريتا بارسي Trita Parsi، يدرك تمام الإدراك أن التحالف الغربي الإيراني سيبقى رغم الانكسار، والتمدد الشيعي الباطني سوف يستمر، والمشروع الإيراني لا يمكن استغناء الغرب المتعصب عنه، لكن ربما باستراتيجيات سياسية جغرافية أخرى (جيوسياسية) وتموضع جديد للمشروع الشيعي الباطني الإيراني، وذلكَ باستخدام وسائل أكثر ذكاءً وتقيّة[٣]، فالمشروع الغربي العالمي والإيراني مشروع استراتيجي متلاقٍ في المصالح، وقد تحقق الكثير منه مع دول الجوار الإسرائيلي حتى أصبحت دول السنة دولاً غير فاعلة أو مؤثرة على الكيان الصهيوني، وربما أنها تحولت إلى دول فاشلة تنمويًا وسياسيًا، ويُعدُّ هذا من الانتصار للمشروع الباطني والغربي والكيان الإسرائيلي على حدٍّ سواء، ولا بد من المحافظة على هذا الإقصاء السني الفاعل على المستوى الغربي والإيراني، والإبقاء على دولة إيران الاثني عشرية التي حققت هذا الإقصاء بنجاح.

إن من الخطأ الكبير الرهان السياسي لو ضُربت إيران ذاتها بأكثر من هذه الضربات التي حدثت لها، حيث إن إيران لديها مشروع استراتيجي متماهٍ مع الغرب، ويمكن أن يضعف في مكان، لكنه سوف يظهر وينشط في أماكن أخرى كما هي عقائد الباطنية الشيعية عبر التاريخ.

إضافةً إلى أن المشروع الغربي الذي أشار إليه الباحث خليفة حول الاستراتيجيات العالمية تجاه أهل السنة يتطلب بقاء حكومة إيران الحالية

(١) استهداف أهل السنة، ص (٣٣).

(٢) المرجع السابق، ص (٣٢).

(٣) التَّقِيَّة عند الشيعة هي التظاهر بعكس الحقيقة، وهي تبيح للشيعي خداع غيره؛ فبناء على هذه التقية ينكر الشيعي ظاهرًا ما يعتقده باطنًا، وتبيح له أن يتظاهر باعتقاد ما ينكره باطنًا، ولذلك تجد الشيعة ينكرون كثيرًا من معتقداتهم أمام أهل السنة؛ مثل القول بتحريف القرآن وسب الصحابة وتكفير وقذف المسلمين وإلى غير ذلك من المعتقدات. الوشيعة في كشف شنائع وضلالات الشيعة، لصالح الرقب، ص (١٣١). وينظر تفاصيل أوسع عنها في الكتاب نفسه ص (١٣١-١٤٠).

وحلفائها وأحزابها وميليشياتها، وذلك بقدر يُسمح لها بأن تبقى عنصر مناورة وإرهاب وتخويف وإضعاف لدول الإسلام السنية، دون أن يُسمح لها بأن تكون منافسًا بالقوة والنفوذ للكيان الإسرائيلي في المنطقة.

> **المشروع الغربي العالمي والمشروع الإيراني متلاقيان في المصالح؛ لذا فإنّ التحالف بينهما سيبقى؛ لأنّ الغرب لا يستغني عن إيران في إضعاف وتخويف الدول السنّية، لكن في حدود معيّنة لا تجعلها منافسة للكيان الصهيوني**

مشروع مقابل المشروع:

بغض النظر عن ملاحظات منهجية وردت في كتاب نبيل خليفة، إلا أنه كتاب يتصف بالتشخيص العميق لإشكالية العلاقات الدولية الإيرانية الإقليمية القائمة على ثوابت أيديولوجية، لكن المؤلف أمام هذه الثوابت لدى المشروع الإيراني يطرح الحل من خلال تكرار حديثه عن أهمية ميلاد مشروع للكتلة السنية يُقابل ويُواجه مشروع عدوهم ويُجهضه، وهو ما يمكن أن يكون العقيدة مُقابِل العقيدة، والدعوة بالدعوة، والثوابت بثوابت، وهي القوى الممكنة التي تواجه القوة الإيرانية في الساحات الإقليمية والدولية، وذلك بقوله بصيغة التساؤل: «فما هو مشروع أهل السنة في لبنان، والخليج والشرق الأوسط والعالم العربي والعالم؟ والجواب -بكل أسف- ليس لأهل السنة مشروع على امتداد العالم السني: لا وطنيًا ولا إقليميًا ولا دوليًا. وأسارع إلى القول: لديهم بعض الأفكار والتصورات، ولكن ليس لديهم مشروع متكامل يقوم على فكر حداثي سياسي معاصر، ويُرفَق باستراتيجية فاعلة ومناسبة للمرحلة التي يمر بها العالم الإسلامي في بداية القرن الحادي والعشرين»[١].

ويختم نبيل خليفة كتابه بخلاصة حول مكانة المملكة العربية السعودية، وأهمية المشروع مقابل المشروع، وذلك بقوله: «ليس من دولة في العالم -سوى المملكة العربية السعودية- تجتمع فيها ولديها مصالح العالم وترتبط بها استراتيجيات كل الدول، وكل اقتراب منها يشكل مساسًا بالأمن الدولي ومصالح الدول الكبرى والصغرى على السواء. فهي سيدة الاحتياط النفطي، وسيدة الإنتاج والتصدير في آن؛ لذا فالمملكة هي دائمًا عرضة للتجاذبات الإقليمية والدولية لكونها حاضنة لأغلى وأغنى ثروة استراتيجية»[٢].

بل إن خليفة يُتابع ما يراه مهمًا للرد على المخاطر والتهديدات والتحديات التي تواجهها المملكة بقوله عن أهمية المشروع السعودي الاستراتيجي بشكل خاص: «هذا الوضع الدقيق والصعب والخَطِر في آن يستدعي من المسؤولين السعوديين ومن الشعب السعودي أن تكون لديهم اليقظة الدائمة والوعي الكافي والوسائل المناسبة للرد على كافة المخاطر والتهديدات والتحديات التي تواجهها المملكة، وهذا لا ولن يتحقق إلا بوضع استراتيجية شاملة للمملكة»[٣].

ونبيل خليفة وهو يطرح المشكلة والحل، يؤكد أن الأكثرية العربية الإسلامية (السنّية) لديها المشكلة والحل كذلك؛ حيث الحقيقة التاريخية والواقعية تسند الحل، وذلك بقوله عن نفسه وعن ما كَتَبَ بقوله: «هذا لا يعني الانحياز للسنة، بل يعني الانحياز للحقيقة السوسيولوجية الموضوعية التاريخية التي تفرض نفسها على الجميع»[٤].

وسائل جديدة للمشروع الممكن:

من يقرأ في كتاب نبيل خليفة يدرك تمام الإدراك وأكمله بأن النظام الإيراني بهذا المشروع الاستراتيجي الإمبريالي القائم على ثوابت سياسية ودينية بعيدٌ كل البُعد عن علاقات السلم والسلام الإقليمية، بالرغم من حِرص دول الجوار على هذا؛ حيث العبث الإيراني بالعلاقات يُعدُّ أيديولوجيا سياسية مُطعَّمة بالطائفية الدينية المقيتة، كما أنها استراتيجية تقوم على المبادئ العدوانية التي تتوافق فيها مع المصالح الإمبريالية العالمية، بل إن هذا الموقف الإيراني الـمُتصلب تجاه العلاقات الـمُثلى وحُسن الجوار، هو ما يُفسِّر ويكشف عن اللغز الـمُحيِّر عند بعض السياسيين والدبلوماسيين والإدارات الأمنية الاستخباراتية في

(١) استهداف أهل السنة، ص (٣٠).
(٢) المرجع السابق، ص (١٥١).
(٣) المرجع السابق، ص (١٥٢).
(٤) المرجع السابق، ص (٣٤).

الدول الـمُستهدَفة حول الممانعة الإيرانية طويلة المدى تجاه تحسين علاقاتها الإقليمية، والإصرار على غياب حُسن الجوار الإيراني الإقليمي.

هزيمة الكيان الصهيوني ممكنة، وعملية طوفان الأقصى عززت قيم الانتصار لدى كثير من شعوب العالم، كما أنها منحت مفاهيم جديدة مختلفة حول القوة العسكرية المتفوقة للكيان وغيره

وتأتي كلمة الأمير تركي الفيصل رئيس الاستخبارات السعودية الأسبق، وسفير المملكة سابقًا في الولايات المتحدة الأمريكية، بمناسبة طوفان الأقصى -بغض النظر عن تجيير الطوفان لمصالح إيران ومشروعها- وهي الكلمة التي تفتح شيئًا كبيرًا من الآفاق والأمل، بل وتضع بعض الملامح الممكنة للمشروع المقابل لمشروع إيران وغيرها من دول الإمبريالية العالمية؛ حيث اهتزاز نظرية (توازن القوى) العسكرية، وأن القوة العسكرية مهما عَظُمَت لا تستطيع أن تقف أمام الإرادة القتالية للأمم والشعوب والدول، وهي قوة من نوع آخر، وذلك بقوله: «تحطيم الصورة التي كانت لدى الكثير من الناس في العالم عن أن إسرائيل هي المانع المنيع ضد أي قوة ممكن أن تنافسها أو تجاريها أو تتحداها في المنطقة»[(١)].

ومن مفاهيم هذا التصريح وما يُشابهه –وهي كثيرة- أن هزيمة الكيان الصهيوني ممكنة، وأن هذه العملية قد عززت قِيَم الانتصار لدى كثيرٍ من شعوب العالم، كما أنها منحت مفاهيم جديدة مختلفة حول القوة العسكرية المتفوقة للكيان وغيره.

فإرادة الأمم والعقيدة القتالية والإيمان بالسيادة الذاتية، أو بالقضية أيًا كانت، تصنع فوارق في تحطيم ما يُسمى (توازن القوة والقوى) لتنتهي بهذه المعادلة الجديدة، أو تَضعُف بها صور الابتزاز الإيراني والدولي العالمي لدول المنطقة، وهو الابتزاز القائم على قوة التسلح والسلاح النووي وما شابهه، وحيث انتصار (قوة التسليح) القائم على الأسلحة التقليدية البسيطة أمام (قوة التسليح) القائم على الأسلحة الحديثة الفتَّاكة حسب تعبيرات إحدى الصحف الأمريكية بمقالها المعنون: (تقلص تكلفة الحرب يهدد الجيوش الغربية) وهو ما يُفسِّر تَقَلُّص تكلفة الحرب على الشعوب المظلومة والدول الـمُحتلة التي يمكن لها أن تُهدِّد الجيوش الغربية في الصراعات والحروب العالمية، ولا سيما مع اختلال هذه المعادلة[(٢)].

ومع كل ما سبق، فإن العلاقات الإيرانية الإقليمية تتطلب المزيد من الدراسات والبحوث حول إمكانية العمل، حتى لو بالتكتيكات الـمُمكنة للعلاقات العربية والإسلامية الوقائية مع إيران، إضافةً إلى العمل بقوة في جانب المشروع والاستراتيجيات العربية والإسلامية في الوقت ذاته، لتفويت فُرص صور الابتزاز الإقليمي والدولي الذي يستنزف المقدرات ويوتِّر العلاقات، ويُبرر التدخلات الأجنبية.

حمى الله جميع أوطان المسلمين من كيد الكائدين ومكر الماكرين، إنه سميع مجيب الدعاء.

من يقرأ في كتاب نبيل خليفة يدرك تمام الإدراك وأكمله بأن النظام الإيراني بهذا المشروع الاستراتيجي الإمبريالي القائم على ثوابت سياسية ودينية بعيدٌ كل البُعد عن علاقات السلم والسلام الإقليمية، بالرغم من حِرص دول الجوار على هذا

(١) تصريح الأمير تركي الفيصل، قناة الاخبارية، بعنوان: (سياسة المملكة ٢٠٢٣م مع الأمير تركي الفيصل)، بتاريخ ١ يناير ٢٠٢٤م، الرابط التالي: https://youtu.be/vaRBp469qy0.

(٢) مجلة ناشيونال إنترست الأمريكية، بعنوان: (تقلص تكلفة الحرب يهدد الجيوش الغربية)، بتاريخ ٢٦ ديسمبر ٢٠٢٣م، الرابط التالي: https://nationalinterest.org/feature/shrinking-cost-war-threatens-western-militaries-208177.

خطأ تخصيص مراتب إنكار المنكر بالوظائف

د. عبد المعين الطلفاح (*)

فريضة إنكار المنكر لا تُحصر في سلطان أو عالم أو عامي، بل هي واجب شرعي على كل مسلم مستطيع، دون نظر إلى وظيفته أو مكانته، والقول الشائع بتخصيص مراتب الإنكار بالوظائف لا يستند إلى دليل معتبر، بل يخالف النصوص الشرعية ويُعطل شعيرة عظيمة، ويُفسح المجال للظلم والفساد، فمناط الإنكار هو الاستطاعة لا المنصب، وتصحيح هذا الفهم ضرورة شرعية ومجتمعية.

فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير من تركه:

لا يخفى على المسلم العاقل أهمية فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في صيانة المجتمعات واستقامة الأمم، وقد جعل الله تعالى هذه الفريضة علامة خيرية هذه الأمة، فقال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وصحَّ عن نبينا ﷺ أحاديث كثيرة في الحض على القيام بهذه الشعيرة، وبيان فضلها، وعاقبة تركها أيضًا، منها قوله ﷺ: (والذي نفسي بيده، لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)[١]. وقوله ﷺ: (إنّ مِن أمتي قومًا يُعطَون مثل أجور أولهم، ينكرون المنكر)[٢].

وشدد علماؤنا على وجوب العمل بهذه الفريضة اتباعًا لأمر الشارع؛ قال الإمام النووي رحمه الله: «واعلم أن هذا الباب -أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدًا... فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل أن يعتني بهذا الباب فإن نفعه عظيم، لا سيما وقد ذهب معظمه،

(*) دكتوراه في الفقه وأصوله من جامعة قطر.

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣١٨١).

ويخلص نيَّته، ولا يهابنَّ من ينكر عليه لارتفاع مرتبته، فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾»[١].

الخطأ الشائع في تفسير حديث (من رأى منكم منكرًا):

غير أن خطأً شاع على كثير من ألسنة الدعاة والوعاظ -وما يزال- في تفسير حديث من أعظم أحاديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو قوله ﷺ: (مَن رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[٢]، حيث إنهم يقولون: إن التغيير باليد خاص بالأمراء، والتغيير باللسان خاص بالعلماء، والتغيير بالقلب خاص بالعامة، وهذا القول قد انتشر حتى صار يُردد على الألسنة دون تمحيص، مما أوقع انحرافًا كبيرًا عن مقصود الشريعة.

أول من فسر الحديث بهذا التفسير:

بحثت كثيرًا عمن قال قديمًا بأن مراتب تغيير المنكر تكون باليد للسلطان، وبالقول للعلماء، وبالقلب للعوام؛ فلم أجد أقدم من كلام نُسب إلى إبراهيم المتبولي (ت: ٨٧٧هـ) نسبه إليه عبد الوهاب الشعراني (ت: ٩٧٣هـ) في كتابه المنن الكبرى، وذكره عنهما الجرداني (ت: ١٣٣١هـ) في الجواهر اللؤلؤية في شرح الأربعين النووية[٣]. ولعل الملا علي القاري (ت: ١٠١٤هـ) في كتابه: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح قصدهم بقوله: «هذا وقد قال بعض علمائنا: الأمر الأول للأمراء، والثاني للعلماء، والثالث لعامة المؤمنين»[٤]. وكذا المناوي (ت:١٠٣١هـ) في كتابه شرح الأربعين النووية لعله قصد المتبولي والشعراني بقوله حيث قال في تفسير الحديث: «وقد قيل: التغيير باليد للأمراء، وباللسان للعلماء، وبالقلب للعامة»[٥].

منشأ الخطأ في تفسير الحديث:

ولعل منشأ هذا الفهم في تفسير الحديث من هؤلاء وغيرهم: ظنهم أن التغيير باليد لا يكون إلا بالسيف والقتال، وهذا ظن باطل كما صرح به الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم، فبعد أن نقل عن الإمام أحمد قوله: «التغيير باليد ليس بالسيف والسلاح»، قال: «وحينئذ فجهاد الأمراء باليد أن يُزيل بيده ما فعلوه مِن المنكرات»[٦]. فمنشأ هذا التفسير من الجهل بالمراد بالتغيير باليد، والظنّ بأن كل تغيير باليد يستلزم فتنةً أو قتالاً، فحصروا التغيير باليد بالحكام، وهذا خطأ[٧].

وقد جاء قوله ﷺ عامًّا دون تخصيص، فقوله ﷺ: (مَن رأى منكم منكرًا فليغيره...) لم يخصص فئة من الناس دون أخرى، بل هو خطاب لكل فرد من أفراد الأمة، حاكمًا كان أو محكومًا، عالمًا أو عاميًا، رجلاً أو امرأة، شريفًا أو وضيعًا. قال النووي في شرح الحديث: «قوله ﷺ: (فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه)، معناه: فليكرهه بقلبه، وليس ذلك بإزالة وتغيير منه للمنكر، ولكنه هو الذي في وسعه... قال القاضي عياض: حق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به، قولاً كان أو فعلاً»[٨]، وبالتالي فإن مناط الحكم القدرة والاستطاعة، وليس المرتبة الاجتماعية أو المنصب السلطوي.

والمراد بالاستطاعة في كلام العلماء: أن يغير المسلمُ المنكرَ بيده دون أن يناله ضرر في نفسه أو ماله أو غيره، فإن وقع شيء من ذلك سقط عنه

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٤/٢).
(٢) أخرجه مسلم (٤٩).
(٣) الجواهر اللؤلؤية في شرح الأربعين النووية، ص (٢٩٥).
(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٢٠٨/٨).
(٥) شرح الأربعين النووية، للمناوي، رسالة ماجستير لمحمد عبد الكريم الإسحاقي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ص (١٨٦)، وقد عقّب المحقق على كلام المناوي بقوله: «وهذا فيه نظرٌ، إذ النص عمَّم، فمن خصَّص فعليه الدليل لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (من رأى منكم منكرًا) ولم يفرّق بين العلماء والعوامّ».
(٦) جامع العلوم والحكم (٢٤٨/٢).
(٧) قد يقال: لعلهم يريدون بهذه الإطلاقات بيان الأغلب؛ فأغلب مَن يقدر على الإنكار باليد: السلاطين وأصحاب الصلاحيات، وأكثر مَن ينكر باللسان العلماء لا سيما وهم أعلم الناس بما يشرع إنكاره وما لا يشرع، فلا يكون في ذلك حصر التغيير باليد بالحكام، ولا سقوط لتبعة القيام بهذه الفريضة عمن هو قادر عليها مع علمه أو ظنه أن غيره لا يقوم بها، وقد قرر أهل العلم أن القادر على فرض الكفاية إذا غلب على ظنه أو علم أن غيره لا يقوم به؛ تعيّن عليه، وحينها لا بد من توضيح ذلك، ولا تعد هذه الأقوال دليلاً لمن يقول بهذا التفريق.
(٨) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٥/٢).

الإنكار باليد، ثم باللسان، ويبقى الإنكار بالقلب، قال النووي في شرح صحيح مسلم: «فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكرًا أشد منه من قتله أو قتل غيره بسببه؛ كَفَّ يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف؛ فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك؛ غيَّر بقلبه وكان في سعة، وهذا هو المراد بالحديث إن شاء الله تعالى»[١].

المراد بالاستطاعة في كلام العلماء: أن يغير المسلمُ المنكرَ بيده دون أن يناله ضرر في نفسه أو ماله أو غيره، فإن وقع شيء من ذلك سقط عنه الإنكار باليد، ثم باللسان، ويبقى الإنكار بالقلب

الرد التفصيلي على هذا الفهم الخاطئ:

١. أن الخطاب جاء عامًا لكل مكلف مستطيع، قال الطبري كما نقل عنه ابن بطال في شرح صحيح البخاري: «الصواب أن الواجب على كل مَن رأى منكرًا أن ينكره، إذا لم يخف على نفسه عقوبة لا قِبل له بها»[٢]. وقال الطوفي في كتابه التعيين في شرح الأربعين: «(من رأى منكم منكرًا فليغيره) هو خطاب للأمة جميعها، حاضرها حينئذ بمشافهتها بالأمر، وغائبها ممن يأتي لقوله عليه الصلاة والسلام: حكمي على الواحد حكمي على الجماعة»[٣]. وقال الطيبي في شرحه على مشكاة المصابيح: «ولا يختص ذلك بأصحاب الولايات، بل هو ثابت على آحاد المسلمين؛ فإن السلف الصالح كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر، مع توقير المسلمين إياهم وترك توبيخهم على التشاغل به»[٤].

٢. التفريق بين إزالة المنكر وإقامة الحدود، فالحدود الشرعية كالجلد والرجم وغيرها لا يقيمها إلا الحكام، أما إزالة المنكرات الظاهرة كتحطيم آلات الباطل، أو إتلاف الخمر وغيرها من المنكرات؛ فواجب على كل قادر. قال الشلبي في حاشيته على تبيين الحقائق: «وهذا لأنه من باب تغيير المنكر باليد، والشارع ولَّى كل أحد ذلك حيث قال: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه)... الحديث، بخلاف الحدود لم يُثبت ولايتَها إلا للولاة»[٥].

٣. تفريق العلماء بين المنكر الظاهر والمنكر الخفيّ الذي قد لا يُعلم حكمه، والعلماء يقولون: إن كان المنكر من الأمور الدقيقة الاجتهادية لم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء كما قال الطيبي في شرحه على المشكاة[٦]. لكن المنكرات الظاهرة كترك الصلاة، والزنى، وشرب الخمر، وكشف العورات؛ فعموم المسلمين عالمون بحرمتها، وهم مخاطبون بإنكارها كلٌّ بحسب قدرته.

٤. تخصيص الحديث بين الأصوليين: من المهم في هذا الموضع أن تُحرر المسألة أصوليًا، فإن من القواعد المقررة في علم أصول الفقه: أن العام لا يُخصص إلا بدليل صحيح معتبر، والحديث النبوي: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه)، هو عام في المخاطَبين، وعام في مراتب التغيير، فمن جاء فقال: التغيير باليد للأمراء، وباللسان للعلماء، وبالقلب للعوام؛ فقد ادعى تخصيصًا بلا دليل، وخرقًا لقاعدة من أقوى قواعد الأصول.

والتخصيص: أي إخراج بعض أفراد العام من العام، لا يكون بالمزاج، ولا بالتجربة الاجتماعية، ولا بأعراف السلطة، وإنما بدليل شرعي معتبر، ولا دليل على تخصيص حديث إنكار المنكر بحسب المراتب السيادية والاجتماعية، بل إن الدليل الشرعي قائم على نقيض هذا التخصيص المزعوم؛ فقد روى مسلم عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن،

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٢٥).
(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥١/١٠).
(٣) التعيين في شرح الأربعين، للطوفي، ص (٢٨٧)، ونسبة الحديث: (حكمي على الواحد حكمي على الجماعة) للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ غير صحيحة؛ فهو لا أصل له، ويغني عنه الحديث الصحيح: (إنما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأة واحدة) أخرجه مالك (٣٦٠٢) والترمذي (١٥٩٧) والنسائي (٤١٨١) وأحمد (٢٧٠٠٩).
(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢٦٠/١٠).
(٥) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي (٢٠٨/٣).
(٦) قال الطيبي: «وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال وما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء»، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢٦٠/١٠).

ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)[1]، فهذا نصٌ قاطعٌ في أن المراتب الثلاثة من التغيير تشمل حتى الأمراء أنفسهم، وقد يكونون محلّ الإنكار لا أداة التغيير، وهذا الحديث من أصرح ما يُرد به على دعوى أن التغيير باليد مخصوص بالأمراء.

كما أن هذا يُظهر أن التخصيص الوظيفي الذي شُهر في بعض الأوساط ليس تخصيصًا أصوليًا يُراعى فيه النص، وإنما هو ناتج عن طبيعة شكل الدولة الحديثة، وما نتج عنها من واقع سياسي واجتماعي (أو إرادة بيان الأغلب كما سبق)، ومثل هذا لا يجوز فهم التخصيص منه.

ثم إن مواقف الصحابة والتابعين من المنكر الذي شاهدوه بعد رسول الله ﷺ ترُد هذا التخصيص المزعوم وتدحضه؛ فقد أنكر الصحابة والتابعون على بعض الحكام الظلمة، وسار على ذلك السلف الصالح من القرون الفاضلة ومن بعدهم، فلم يقعدوا عن مقاومة المنكرات بدعوى اختصاص الإنكار بالسلطان، بل كانوا يأمرون وينهون كلٌّ بحسب استطاعته، وذلك إجماع عملي منهم، قال النووي في شرح صحيح مسلم: «قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لآحاد المسلمين، قال إمام الحرمين: والدليل عليه إجماع المسلمين، فإن غير الولاة في الصدر الأول والعصر الذي يليه كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر، مع تقرير المسلمين إياهم وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية»[2].

> **الفهم الخاطئ لحديث (من رأى منكم منكرًا) على واقع الأمة أدّى إلى كارثتين كبيرتين في حياة المسلمين: الأولى: تعطيل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمومًا، والثانية فتح الباب أمام الفساد والاستبداد، وترك الحاكم نفسه إن كان هو مرتكب المنكر أو الحامي والمشرع له دون إنكار**

خطورة هذا الفهم الفاسد على واقع المسلمين:

المتأمل في انعكاس الفهم الخاطئ لهذا الحديث (من رأى منكم منكرًا) على واقع الأمة يجد أنه أدى إلى كارثتين كبيرتين في حياة المسلمين:

- **الأولى: تعطيل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمومًا:** فحين قُصرت مراتب الإنكار على طبقاتٍ معينة (اليد للأمراء، واللسان للعلماء، والقلب للعوام)، ونشأ عن ذلك أن الأكثرية الساحقة من الأمة أصبحت تتوهم أن لا دور لها في إنكار المنكرات، وأن دورهم مقتصر على كراهة المنكر بالقلب، وصاروا يكلون الإنكار إلى الحكام والعلماء؛ تعطلت بهذا الفهم فريضة عظيمة كان الله قد أمر بها كل مسلم بحسب استطاعته، وانتشرت المنكرات بلا إنكار عملي يُذكر، وهذه كارثة خطيرة عمت المجتمع المسلم.
- **الثانية: فتح الباب أمام الفساد والاستبداد:** فلما توقف الناس عن إنكار المنكر معتقدين أن تغيير المنكر باليد لا يكون إلا للحاكم، وكان الحاكم نفسه في كثير من الأحيان هو مرتكب المنكر أو الحامي والمشرع له -سواء المنكر الاجتماعي أم السياسي أم غيرها من أنواع المنكرات- شاع الفساد في المجتمعات، بل وتجذّر أيضًا، ونشأ الاستبداد والطغيان السياسي أيضًا. وقد حذر النبي ﷺ صراحة من ترك الإنكار على الظلمة فقال: (إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشكَ أن يعمَّهم الله بعقاب منه)[3].

الخاتمة:

يجب على العلماء والدعاة إلى الله تعالى أن يعملوا على تصحيح هذا الخطأ السائد، ويدعوا لإعادة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى نصابها الشرعي، من كونها فريضة فردية على كل مسلم وواجبًا جماعيًا، وضرورة اجتماعية، وأن التقاعس عن إنكار المنكر سبب من أسباب نزول العذاب العام، وأن وظيفة العالم والحاكم والعامّي مشتركة: إنكار المنكر بحسب القدرة والوسع، لا بحسب المرتبة الوظيفية، وأنه لا يجوز تحريف نصوص الشريعة أو تأويلها بما يخدم الاستبداد، أو يشرعن الظلم.

(١) أخرجه مسلم (٥٠)، وفي رواية لابن حبان (٤١٢٧): (ستكون أمراء من بعدي يقولون ما لا يفعلون).
(٢) شرح صحيح مسلم (٢٣/٢).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) والترمذي (٢١٦٨) واللفظ له.

بين تعظيم حجاب القلب وتهوين حجاب البدن: شبهات ومغالطات

أ. هدى عبد الرحمن النمر (*)

تتناول المقالة بالبيان والتفنيد أبرز الشبهات حول حجاب المرأة والتي يتوصل بها إلى إنكار فرضيته، وفي مقدّمتها: أنّ صلاح القلب يغني عن الحجاب، إضافة إلى دعوى الحرّية الشخصية، وتعارض الحجاب مع حبّ المرأة للجمال، وأنّ الحكمة منه حماية المرأة وهي متحقّقة الآن بالأنظمة والقوانين الرادعة.

من المقولات التي ذاعت أن «الحجاب حجاب القلب»، مستندين إلى الحديث النبوي: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[1]، والحديث صحيح لا مراء فيه، وكذلك المقولة لها وجاهة من حيث إنَّ للقلب حجابًا كما للبدن حجاب، لكن لا يصح اتخاذ هذه المقولة حجةً في أن حجاب القلب حُجّةٌ لتعرية البدن مما وجب عليه من حجاب شرعًا أو عرفًا. فكانت هذه المقالة لمناقشة المقارنات أو المفاضلات بين الحجابين.

مفهوم العورة وحدودها في التصوّر الشرعي:

تعريف العورة: «هي ما أوجب الشارع ستره من الذكر والأنثى»[2]، وقيل: «هي ما يَحرُم كشفه من الجسم، سواء من الرجل أو من المرأة، أو هي ما يجب ستره وعدم إظهاره من الجسم»[3].

وقد حدد الشارع حدّ العورة، أي الجزء الذي يجب ستره بحسب الجنس ذكرًا كان أو أنثى، والمرحلة العمرية، وسياق المعاملة مع محارم أو أجانب، وحيثياته من ضرورات أو استثناءات أو احترازات. فحدّ عورة المرأة أمام الرجال الأجانب يختلف عن حدها أمام محارمها... وهكذا.

بهذا يتضح أن الإسلام يرسم هيئة ظاهرية لكل من المسلم والمسلمة في مختلف الأحوال، باختلاف حدود الستر والكشف بحسب الجنس والعمر والسياق وحيثيات أخرى كلها مفصلة في الشريعة تفصيلاً بيّنًا.

(*) كاتبة ومؤلّفة ومتحدِّثة في الفكر والأدب وعُمران الذات.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٦).

(٢) معجم لغة الفقهاء، لمحمد رواس قلعجي، ص (٣٢٤).

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٤/٣١).

خلاصات حول حجاب القلب وحجاب البدن

لا خلاف في وجوب الستر على المرأة، وإنما وقع الخلاف في أعضاء محددة

لو أراد الله للحجاب أن يكون في القلب فقط لما شرع للبدن حجابًا

ظاهر الإنسان لا ينفصل عن باطنه ولا مجال للمفاضلة بينهما

قضية ما يكشف وما يستر من الشعائر التعبدية المتصلة بالاعتقاد

معرفة الحكمة من الأمر غير ضرورية من أجل الطاعة والاتباع

لا تعارض بين تجمل المرأة وسترها عن عيون الغرباء

الحجاب لا يتعارض مع مبدأ حسن الهندام

فما أبرز الشبهات التي يتأثر بها المشكّكون أو المتشكّكون في هيئة حجاب المرأة المسلمة خصيصًا؟

الشبهة الأولى: التشكيك في فرضية الحجاب لعدم ورود لفظته صريحة في القرآن والسنّة:

الحجاب هو: ما يَحجُب أي يواري ويستر عن النظر[1]. وعليه يمكن أن نقول: إنه لكل من الرجل والمرأة هيئة لباس حاجب لعورة كلّ منهما في التصور الشرعي؛ لكن شاع شرعًا وعرفًا إطلاق لفظ الحجاب على لباس المرأة المسلمة خصوصًا (وليس قطعة القماش الساترة للشعر فحسب، كما سيأتي بيانه).

وصحيح أنك لا تقف في مرجع شرعي من تصنيف الأوائل على فصل أو قسم بعنوان «حجاب المرأة»، ولا وردت لفظة الحجاب صريحة في القرآن والسنة بالمعنى الدارج لها (لباس المرأة المسلمة الشامل)، لكن ورد صريحًا ألفاظ تفيد المعنى المراد مثل: جلباب، خمار، احتجاب، استتار، يُدْنِين ...الخ، وكذلك تصنيف الرجال بالنسبة إلى المرأة إلى محارم وغير محارم، وحدّ عورتها أمام كل منهم. فمن هنا أطلق على ما ينبغي أن تستتر به المرأة أمام غير المحارم: (الحجاب)؛ كونه حاجبًا لها عن نظرهم.

ولا خلاف بين العلماء -بل عامة المسلمين- في وجوب الستر والتغطية الكاملين على المرأة الحرة البالغة أمام الأجانب، وإنما اختلف الأئمة في وجوب تغطية أعضاء محددة هي الوجه والكفين والقدمين[2]. وبهذا يتضح أنه لا وجاهة لمن يقول بعدم فرضية الحجاب لعدم ورود لفظته صريحة في القرآن والسنة!

والنقطة الأخرى: أن كثيرًا من الألفاظ الشرعية التي نتداولها لم يُنص عليها بحروفها في القرآن والسنة، ومع ذلك فليست محل خلاف بين أهل العلم، بل إن تقسيم العلوم الشرعية ذاته لم يكن في الصدر الأول من الإسلام، وجميع هذا لا يدل على عدم مشروعيتها أو صحتها أو سلامة ما تتضمنه من مفاهيم!

الشبهة الثانية: صلاح القلب يغني عن حجاب البدن:

يقولون: إن الأهم في الإنسان أن يصلح قلبه، أما شكله ومظهره فلا يهم، وليس هو الأصل.

(١) ينظر: لسان العرب (٢٩٨/١).

(٢) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، (١٣٤/٤١) وما بعدها.

والجواب: لو أراد الله تعالى للحجاب أن يكون في القلب فحسب لما شرع للبدن حجابًا؛ فإن الله تعالى جعل اللباس لباسين: لباس البدن (حجاب الظاهر) ولباس التقوى (حجاب الباطن) فقال: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]. فلو شاء الله تعالى أن يكون لباس بني آدم التقوى فحسب (لباس القلب) لما شرع اللباس الذي يواري العورات (لباس البدن)! والإنسان عبارة عن ظاهر وباطن، ولكل منهما أحكام وآداب في التصور الشرعي.

وقد اعتنت الشريعة الربانية المتكاملة بهيئة الباطن وتهذيبه، كما اعتنت بهيئة الظاهر وتهذيبه بوصفه فرعًا عن الأول ودالّاً عليه ومُرسِّخًا له، وإن اختلفت درجات العناية وصورها وأحكامها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، ففيه البيان القاطع بضرورة العناية بالظاهر والباطن معًا وعدم فصمهما، وعليه فالتربية الإسلامية الصحيحة هي ما يعي فيها المسلم الناشئ أن الظاهر تعبير عمّا وقر في الباطن من إيمان وقناعات وأخلاق ومبادئ، وأما المفاضلة القائلة بأن كون الباطن خيرًا من الظاهر أحسن من أن يكون الظاهر خيرًا من الباطن، فهي تخطئ القياس ابتداء؛ إذ هذه عبادة وهذه عبادة أخرى، فالأمر أشبه بمن يقول إن صلاة الفريضة خير من صيام الفريضة فلا بأس في التقصير في الصيام ما دمت تؤدي الصلاة! وهذا خلط للأمور وإفساد للموازين.

لو شاء الله تعالى أن يكون لباس بني آدم التقوى فحسب (لباس القلب) لما شرع اللباس الذي يواري العورات (لباس البدن)، والإنسان عبارة عن ظاهر وباطن، ولكل منهما أحكام وآداب في التصور الشرعي

الشبهة الثالثة: الكشف والستر مسألة حرية شخصية لا صلة لها بالعقيدة:

في سياق مفهوم الحرية لا بد من استحضار حقيقة أنه لا توجد حرية كاملة مطلقة من أي قيد أو ضابط، وأنه لا وجود لهذه الحرية بين البشر أصلاً؛ ذلك أن الحرَّ حريةً حقيقيةً كاملةً هو الذي لا قيود عليه البتة، ولا شرط ولا حَدّ، ويجب أن يكون ذا اقتدار واستغناء تام عن أي أحد أو شيء خارج نفسه؛ لأن الحاجة إلى أي شيء خارج الذات تتنافى مع طلاقة حريتها وتمام استغنائها. وعليه، فخلقة الإنسان لا تمكّنه أن يكون حرًّا حرية تامة أو مطلقة، على أي وجه تنظر منه؛ فلا هو قائم بنفسه، ولا مُستغنٍ بها عن كل ما ومَن حوله، فهو محتاج بالضرورة لأوّليات الحياة من غيره، كالضياء من الشمس، والماء من المطر، والزرع من الأرض، وهكذا. وهو معتمد بالخِلقة على ما ومَن حوله بدرجات في مختلف أطواره وشؤون معاشه، وطاقاته محدودة بحدود خِلقته، فلا يرى –مثلاً– أنواعًا من المرئيات ولا يسمع درجات من الأصوات، ومشدودٌ بقيود حاجاته كالجوع والعطش وقضاء

الحاجة. أضف إلى ما سبق أن كل إنسان مقيّد لا ريب بإملاءات المرجعية التي ينتسب لها ولو كانت قانون دولة أو عرف مجتمع، أو ضوابط وقواعد مؤسسية، وما أشبه[1].

فالحاصل أن الإنسان حرّ بقَدْر مُقدَّر، في مساحات معيّنة، لِمُراد محدّد ومُبيَّنٍ له جملة وتفصيلاً.

وبالرجوع للشرع وأدلته نجد أن الخالق تعالى أودع في مختلف مخلوقاته طاقة الإرادة بدرجات، ثم قدّر لهذه الطاقة أعلى درجاتها بين المخلوقات في الإنسان، وخصّه بذلك، فهي هِبَة من الله تعالى وفرع عن مشيئته فيه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. وليس للإنسان فضل في اكتسابها، ناهيك أن يكون قد أنشأها في نفسه! لذلك فالأُطر والحدود التي شرعها الله تعالى لا تعرقل إرادة الإنسان التي قدّرها خالقه له في مساحات كسبه وحركته التي كلّفه خالقه بها ويحاسبه عليها، فكله من مشكاة واحدة، وإنما الخلط أو الشعور بالتضارب يقع من أفهام غير صحيحة وتصورات متوهمة من عند الإنسان عن نفسه وطلاقة طاقته ومكانته في الوجود.

والمسلم أولى الناس باستشعار مخلوقيته، وإدراك أنّ طاقة الإرادة المُودَعة فيه تتقلّب حقيقة بين منحة ومحنة، ليس له في الأولى فضل ولا في الثانية اختيار. ومع ذلك مما يؤسف له انتشار نزعة التيه القاروني[2] بالحرية الإنسانية وعظمة الإرادة الإنسانية؛ بسبب التأثر بالأدبيات المستوردة القائمة على الكفر بالله تعالى ونكران المخلوقية وتأليه الإنسانية، وَكَأنّا لم يَبْلغنا قول ربّنا تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

ثم إذا كان التصور الشرعي واضحًا في العناية بموازين كل من الجانبين (الظاهر والباطن)، فقد جعل لكل منها قدرًا، ورتّب لكل أحكامه، وجعل للإخلال بكل منهما أوجه مؤاخذة خاصة به، فمن أين تأتي بدعة اختزالهما في واحد؟

تأمل هذا التسلسل: كان ثاني ما وُعِد به آدم عليه السلام من رَغَدٍ في الجنة بعد الشِّبَع هو السّتر باللباس: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه: ١١٨]، وأول ما عوقب به هو وزوجه على المخالفة: العُرْي بانكشاف العورة ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١]، وأول ردّة فعل فطريّة عند ذلك الانكشاف: محاولة ستر ما تعرّى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١]، وبعد الإنزال إلى الدنيا أعطيا كسوة الدنيا: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، فلم يُترَكا للعُري تحت أي مسمى في أية مرحلة؛ لا عقوبة، ولا مثوبة، ولا حرية شخصية!

في سياق مفهوم الحرية لا بد من استحضار حقيقة أنه لا توجد حرية كاملة مطلقة من أي قيد أو ضابط، وأنه لا وجود لهذه الحرية بين البشر أصلاً، فالإنسان حرّ بقَدْر مُقدَّر، في مساحات معيّنة، لِمُرادٍ محدّدٍ ومُبيَّنٍ له جملة وتفصيلاً

ومن نعيم الجنة الموعود أن يتحرر المؤمنون من قيود الدنيا متمثلة في الجوع والعطش وحتى الموت، ومع ذلك لا تجدهم كوفئوا بالعري، فلا «يتحررون» من اللباس ولا يُترَكون للعُري، بل اللباس والستر من مكافآت الجنة: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١]، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، فتأمل كيف أن العري كان دائمًا علامة المعصية ومخالفة مرضاة الله تعالى منذ الأزل، حتى إنك تجد أن تعرية البدن إحدى صور التعبير عن التمرد المتكررة في تاريخ الثورات البشرية[3]، فتأمل!

وفي المقابل، الستر والتستر من الإيمان، بل الستّير من أسماء الله تعالى، وفي الحديث: (إن الله حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم

(١) مستفاد من: «الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟» للبوطي؛ و«الإسلام بين الشرق والغرب» لبيغوفيتش.

(٢) قال قارون من قبل: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: ٧٨]!

(٣) Alaimo, Stacy. 2010. "The Naked Word: The Trans-Corporeal Ethics of the Protesting Body." Women & Performance: A Journal of Feminist Theory 20 (1): 15–36. https://doi.org/10.1080/07407701003589253. Lunceford, Brett — Naked Politics: Nudity, Political Action, and the Rhetoric of the Body (2012). https://www.researchgate.net/publication/236229228_Naked_Politics_Nudity_Political_Action_and_the_Rhetoric_of_the_Body

فليستتر)[١]، حتى إن التصور الشرعي للستر والكشف فيه آداب ستر العورة ولو كان المرء في خاصة نفسه وحده، إذ إنه لا يخلو عن نظر عالم الجن والملائكة ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

بهذا يتضح أن قضية الكشف والستر من الشعائر (أي العلامات) الظاهرة المتصلة اتصالاً وثيقًا بالعقيدة الباطنة، وليست مجرد مسألة اختيارات ذوقيّة بلا دلالات عقدية؛ فما وقر حقيقة في الباطن وانعقد عليه القلب ينعكس بالضرورة على الظاهر وعمل الجوارح، ولذلك كانت هيئة المسلم والمسلمة الظاهرة وحدود اللباس الموضوعة لكل منهما في مختلف السياقات كلها لها مقصد تعبدي في التصور الشرعي، وليست مجرد عناية شكلية ولا هي مسألة ذوق شخصي بغير دلالة عقدية.

وتأمل الدلالة العقدية الكامنة في العرف العولمي القائم على «الإنسانوية»، تجد أنه كلما تعرَّى الإنسان ظاهرًا من اللباس بدعوى التمدّن والتحضّر والتجمّل والتحرر، وتجرّد باطنًا من الانتماء العقدي ذي الموازين الواضحة والمبادئ الثابتة بدعوى الحياد والموضوعية والنسبية والمرونة والعقلانية... إلخ، وكلما تعرى من هذا وتجرّد من ذاك؛ صار «أكثر إنسانوية» أي إخلادية للهوى والأرض، وفي المقابل أبعد عن دين الله تعالى أي الربانية![٢] ولهذا يظل إظهار الشعائر الإسلامية –على رأسها زي المرأة المسلمة– قضية فائرة إلى اليوم، تثير العداوة وتستثير الضغينة الكامنة حتى في أكثر الدول والأزمان «تقدّمًا وتحررًا» باعتباره يقلق التصور العلماني للمظهر الإنساني «الحر والمتمدّن» (أي المتجرد والمتعري)! فتأمل التضارب واعجب لغافل عن مضامينه ومآلاته!

بين تفريط وإفراط:

مع كل ذلك البيان الواضح، فرّط بعض المسلمين في تقدير مسألة الظاهر على وجهها، وغالوا في مسألة الباطن، فاتُّخذ الاشتغال بالباطن ذريعة للامبالاة بحسن الهندام بالكلية (سواء لتوفير النفقات أو لسوء التأول والتطبيق لمعنى الزهد في زينة الدنيا)، حتى صارت هيئة بعضهم مرتبطة في الأذهان بالشَّعَث وسوء الهندام والرائحة، وهذا مخالف قطعًا لآداب الشريعة وحقها في حسن تصويرها وتصديرها. وسنة المصطفى ﷺ وعمل المسلمين من بعده ناطقة بحسن الهيئة في جمال وجلال، بغير ابتذال أو سوء هندام أو إسراف وخُيَلاء (كلوا واشربوا وتصدقوا والبَسوا، في غير مَخِيلة ولا سَرَف، إن الله يحب أن ترى نعمته على عبده)[٣]؛ وفي حديث آخر: (من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه)[٤].

في المقابل، غالى آخرون في الاتكاء على حجة حجاب القلب متخذين إياها ذريعة لتعرية الجسد والتهاون في فرضية حجابه، ومع أن هذه الفعلة تنطوي على تمرد عصياني يفضح خللاً في القلب (العقيدة) قبل البدن على ما سبق بيانه؛ تجد أصحابه يتسترون وراء تأويلات كاذبة لنصوص شرعية صحيحة، منها حديث: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[٥]. فالحديث صريح في أن الله تعالى يجازي على الأعمال القلبية والسلوكية معًا؛ وأما المقصود بعدم نظره تعالى إلى الصور أنه تعالى لا يؤاخذ العبد على ما لا يد له فيه من الصورة، كمن يخلق بقصور خلقي أو ضعف بِنية، ولا على ما لا يتعلق به حكم شرعي بذاته كنحافة الجسم أو بدانته. ومما جاء في شرح الحديث:

«إن الله لا ينظر» أي: نظر اعتبار. «إلى صوركم»: إذ لا اعتبار بحسنها وقبحها. «وأموالكم»: إذ لا اعتبار بكثرتها وقلتها. «ولكن ينظر إلى قلوبكم» أي: إلى ما فيها من اليقين والصدق والإخلاص وقصد الرياء والسمعة، وسائر الأخلاق الرضية والأحوال الردية. «وأعمالكم» أي: من صلاحها وفسادها، فيجازيكم على وفقه»[٦].

(١) أخرجه أبو داود (٤٠١٢).
(٢) لمزيد من التفصيل في تاريخ نشأة مفهوم «الإنسانوية Humanism» ونشر عقيدتها فيما يعرف بالمرجعية الإنسانية Humanity، يُراجع كتاب: «الأسئلة الأربعة» للكاتبة.
(٣) أخرجه أحمد (٦٧٠٨).
(٤) أخرجه أحمد (١٩٩٣٤).
(٥) سبق تخريجه.
(٦) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٣٣١/٨).

فمن أين يفهم في ظل التصور الشرعي المعلوم اتخاذه حجة لترك أعمال السلوك والظواهر بدعوى التعويل على البواطن؟! والحق أن الباطن إذا استقام على أمر الله تعالى أقام الظاهر تلقائيًا بالتبع، فتأمل يتبيّن لك مكمن الكذب في الدعوى.

> **سنة المصطفى ﷺ وعمل المسلمين من بعده ناطقة بحسن الهيئة في جمال وجلال، بغير ابتذال أو سوء هندام أو إسراف وخُيَلاء**

ما الحكمة من تحديد العورة والأمر بالستر؟

من آثار الشبهات التي أثارتها تيارات كالنسوية وردّة الفعل الدفاعية عن أحكام الشرع المتعلقة بالنساء، أن أمعَنَت كثير من الكتابات في تقصي حِكَم الحجاب وتعيين مقاصده، كصون المرأة من أطماع المنحرفين ودرء الفتنة... إلخ. والحق أن العلماء قد أفاضوا بالفعل في تتبع واستنباط العِلَل والحِكَم[1] الكامنة في الأحكام الشرعية، لما يترتب عليها من أثر في منظومة التشريع وأدوات المنهج الأصولي كالقياس وغيره، فهذا عمل محمود ومطلوب.

وإنما لا بد من وقفة تنبيهية على أن غاية المسلم من امتثال أي حكم شرعي هي التعبد لله تعالى بامتثال أمره، ولا تتغير هذه الغاية بما قد يظهر أو يخفى من حكمة أو مصلحة في الامتثال، فلا تلزم الإجابة على كل «لماذا» السائلة عن علّة أو حكمة الحكم الشرعي بذاتها لـ «يقتنع» بوجاهة الحكم فيتحاكم له ويمتثله! إذ إن الجواب العام الذي ينتظم التصور الشرعي والذي يقوم عليه معنى الإسلام: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾؛ فمراد الله تعالى من عباده هو في حد ذاته العلّة لكل حكم. وتأمل في مقولة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ عندما قبل الحجر الأسود ثم قال: «والله لقد علمت أنك حجر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»[2].

وأما ما انتشر من التدليل العلمي على الفوائد الصحية والنفسية والمجتمعية وغيرها لبعض الطاعات، أو ما يقابلها من الأضرار لبعض المعاصي، فمثل هذه ينظر لها على أنها من باب التأمل والتدبر في حِكَم التشريع المعلومة، لتثبيت الذين آمنوا من جهة واتخاذها سببًا لدعوة غيرهم من جهة أخرى، لا من باب التبرير لأحقّية العقيدة وتشريعها؛ لأنّ الالتزام بالشرع تكليف تعبّدي قائم على كل عبد، وإن لم تتبيّن له الحكمة الإلهية المخصوصة منه أو تتضحّ له فوائد مادّية وعوائد شخصيّة، خاصة وأن المؤمن يعتقد بالحكمة الإلهية الكاملة مطلقًا في كل تشريع، وفيما ورد في الشرع من عائد الطاعة والامتثال إجمالاً، وفي وجوب التزام أمر الله تعالى من حيث هو مراده تعالى.

ولا يوجد مانع شرعي من التفكر في الحِكَم الكامنة وراء أحكام الله تعالى، ما دام لها سند من استنباط أهل العلم الراسخين فيه، وما دام المرد في التزام أحكام الله تعالى إلى مبدأ العبودية، سواء تبين وجه الحكمة أم لا، وسواء كانت هناك هيئات أخرى لتطبيق تلك الحكم وتحصيل تلك المنافع أم لا، ويظل على المسلم امتثال أمر الله تعالى على الهيئة التي أقرها الله تعالى من حيث إنه مسلم لله تعالى.

وبناء عليه يكون موقف المسلمين من مسألة الحجاب كغيرها من مسائل الشريعة، فإمعان الكثيرين في تلمّس الحكمة من ارتداء الحجاب واختراع منافع عصرية له لإقناع المعادين بمحاسنه شيء، ووجوب التزام أمر الله تعالى شيء آخر. لذلك لا يستقيم منطق مَن يدعي أن قوانين اليوم تكفل صيانة النساء دون الحاجة لالتزامهن بتستر معين، أو أن الأخبار لا تنفك تتناقل حوادث إيذاء نساء محجبات بما يعني عدم تحقق مقاصد الحجاب وبالتالي لا جدوى من التزامه، أو أنه ليس على المرأة تحمل تبعات زوغان أعين الرجال وكلٌ مسؤول عن ملك نفسه.. إلى آخر الحجج الواهية. فالجدوى في التزام أمر الله تعالى تكمن في تعبدية الالتزام، وكلٌ يحاسب وحده على مدى التزامه، وفساد بعض صور التطبيق أو وقوع الفجور هما من آثار مخالفة الشرع عن جهل أو هوى أو ضعف تقوى، لا من آثار الالتزام الصحيح والمتكامل به!

والمسلمة كالمسلم كلاهما أسلم نفسه لله تبارك وتعالى؛ فليس لهما الخيار في مخالفة التكليف الشرعي تحت دعوى أي تأويل مبتدع للآيات، ناهيك عن تبديل الحرام والحلال ونزع الفرضية عن الفريضة، كمن يقول إن آية الحجاب ربطته بعدم تعرض المرأة للإيذاء، فهي اليوم في حِمَى القانون ولا تحتاج قطعة القماش تلك!

(١) العِلّة هي الباعث على تشريع الحكم، والحكمة هي المصلحة المترتبة عليه من جلب منفعة أو دفع مضرة.
(٢) أخرجه البخاري (١٦١٠) ومسلم (١٢٧٠).

علاقة الباطن والظاهر عنايةً وإهمالاً

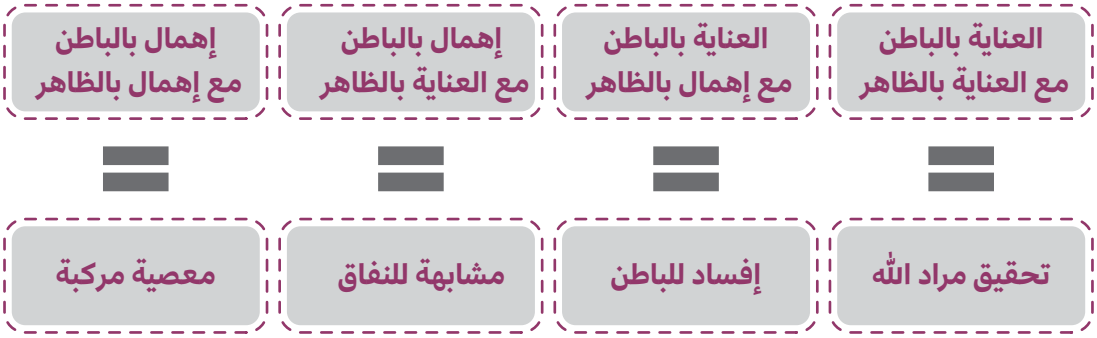

وقد التزمت الأمرَ بالحجاب نساءٌ خير من نساء اليوم، كن يتعاملن مع رجال خير من رجال اليوم، في أزمان خير من هذه الأزمان، ومع ذلك لم يظهر منهنّ من ادّعت أن «حجاب القلب» كافٍ، أو أن التربية الأخلاقية أو السلطة القانونية ترفع الحاجة للحجاب وبالتالي تُبطل التكليف!

الجدوى في التزام أمر الله تعالى تكمن في تعبدية الالتزام، وكلٌ يحاسب وحده على مدى التزامه. وفسادُ بعض صور التطبيق أو وقوع الفجور هما من آثار مخالفة الشرع عن جهل أو هوى أو ضعف تقوى، لا من آثار الالتزام الصحيح والمتكامل به!

هل يتعارض حجاب المرأة مع فطرة حب الجمال والتجمّل فيها؟

حس الجمال وحب التجمّل والتحلّي عند المرأة مركب فيها بالفطرة، والله تعالى أشار للنساء بوصف: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ [الزخرف: ١٨]، وكغيره من الرغائب والميول تضبطه حدود الشرع وأحكامه وآدابه، وبالتالي تنسجم فطرة التجمل والتمتع بالجمال مع التطبيق المحمود حيث أحلّ الله تعالى، ولا يستقيم اتخاذ الفطرة حجّة لتبرير مخالفة الشرع؛ إذ الفطرة والشرع من مشكاة واحدة ابتداء. وقد زُيّن للناس إجمالاً حبّ الشهوات عمومًا ليكون من ذلك مكمن امتحانهم وتمحيص إيمانهم وتزكيتهم، لا لتُتّخذ حجّة لإتيانهم إياها بلا رادع.

وكذلك لا يستقيم وصف الأحكام المتعلقة بهذه المسألة بالتحيز ضد النساء، إذ إن مبدأ الحدود قائم في كل أحكام الله تعالى يخاطب بها الرجال حينًا والنساء حينًا وكلاهما معًا أحيانًا أخرى، وهذا يعني امتناع التصرف بحرية مطلقة فيما لم يكن أصلاً ملكًا أصليًّا لصاحبه، على ما سبق بيانه في الكلام على الحرية. فالبدن من الله، وطاقة الحرية من الله، وترسيم الحدود من الله، والتكليف من الله، والحساب على الله، وكله من مشكاة واحدة.

ولأن الأصل للمرأة الستر والوقار في التصور الشرعي؛ كان محل التوسعة عليها بالتجمل وكشف المحاسن داخل دارها (بحسب الدرجة المباحة أمام مختلف المحارم)، وكان محل التضييق بالمقارنة خارجه.

وفي المقابل، الأصل للرجل غض البصر وملك الفرج عمن حرّم الله تعالى عليه، وكل النساء حرام على الرجل إلا من أحلّ الله له الزواج بها؛ ولذلك كانت مسألة التجمل هذه مسألة ركينة في تحقيق مقاصد الزوجية الأساسية وهي: الإحصان والإعفاف وإرواء الشهوة بالحلال، والتمتع المطلق بالمنظر والملمس والصوت وكل ما يحرم التمتع به بشهوة خارج تلك الصلة.

وأما خارج النطاق الشرعي، فالمرأة التي اعتادت بذل أقصى الجهد للتأنق خارج البيت، بأنواع الزينة من مساحيق، وعطور، وملابس غير محتشمة تصف وتحجم، لذلك من الطبيعي بالنسبة لها أن يكون البيت مكان «التحرر» من «ضغوط» ذلك التأنق

المنهكة، بأقصى أشكال التحرر المتمثلة في نبذ أي هندام أو لباس! وتناولت كثير من الدراسات ظاهرة «تفضيل التشييء على الشراكة objectification over partnership» أي أن النساء يعتنين بإظهار جاذبيتهن أمام المراقبين «غير المهمين» من الغرباء، بينما تكاد تنعدم عنايتهن بمظهرهن في المجال الخاص مع أزواجهن(١).

وفي المقابل، تعوّد الرجال في تلك الثقافات على درجة من التمتع المفتوح بالنساء في كل وقت وكل طور، فلا رادع من إطلاق النظر والتلامس مع مختلف النساء في مختلف السياقات خارج البيت، وكلها من صور ودرجات التمتع والإرواء الشهواني وإن لم تعقبها معاشرة، مما يقلل من توقعاتهم في المنزل مع الزوجة «الروتينية». ومع ذلك، بدأت موجة شكوى الرجال من سوء هندام نسائهم في البيت، وبُخلهنّ عليهم بأدنى جهد للتجمل في مقابل «إنفاق الساعات في التزين بأدوات هو من دفع ثمنها ليتمتع بثمرتها غيره من الرجال»، كما عبر د. أوريون استشاري العلاقات الزوجية، في إحدى حلقات برنامجه بعنوان «أكثر قناعة سامّة في العلاقات: أنت حرّ في أن تكون مع شريكك كيف تشاء»(٢).

والحاصل من هذا العرض أن كل نمط حياة متسق مع العقيدة التي ولّدته، وكل عقيدة لا مفرّ تملي نهج حياة داخل وخارج المنزل.

ختامًا، هل تكون المسلمة مهندمة؟

لا تعارض بين هيئة الحجاب ومبدأ حسن الهندام، وليس في شرع الله إجمالاً ما يعارض أو يعوق اللباس الحسن، بل إن الدين هو المتمم والمهذب والموجه لها. وتأمّل قول المصطفى ﷺ في مجلس بين الصحابة: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)، فعقّب أحد الحاضرين قائلاً: «يا رسول الله، إنَّ الرجل يحب أن يكون ثوبُهُ حسنًا ونعلُهُ حسنةً»، فقال المصطفى ﷺ: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس)(٣).

لكن يلزم الانتباه إلى أن الدلالة اللغوية والشرعية للحجاب تفيد الحجب لا الكشف، والإخفاء لا الإبراز، والستر لا الاستعراض. والمقصود من المعرفة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] أن يتضح من سمت المرأة وهيئتها ما تُحترم به حدودها وتُقطع به عنها الأطماع وتُدرأ به الفتن المحتملة في المعاملات، ليس أن تتحجب على هيئة تلفت الأنظار لمفاتنها.

بناء عليه، فهيئة الحجاب تعني تعمّد إخفاء الزينة عند التعرض لنظر الملأ، لا تعمّد إظهار الزينة أو حتى تعمّد التزيّن لذلك النظر! جاء في تفسير القرطبي للآية: «أمر الله سبحانه جميع النساء بالستر، وإن ذلك لا يكون إلا بما لا يَصِف جلدها، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبس ما شاءت؛ لأن له أن يستمتع بها كيف شاء»(٤).

ومع ذلك، يكثر في التطبيقات المعاصرة للحجاب التحايل على أساليب الكشف والتكشف؛ كلبس أغطية للرأس تظهر خصلات شعر أو جزءًا من الرقبة والنحر الواجب تغطيتهما، أو لبس أكمام قصيرة تكشف عن السواعد، أو أحزمة تحدد حجم الخصر... إلخ. ويكثر كذلك الإمعان في التزين والتبرج والتحلي والتعطر بدرجات متفاوتة، وكل تلك المظاهر لا تخرج بالحجاب عن معناه وروحه فحسب، بل حدّه الشرعي كذلك، بما يوقع صاحبته في الإثم لمخالفاتها ولو لم ينظر لها أحد، فإن نظر زاد نصيبها من الإثم بغير أن ينقص من إثم المحدّق غير الغاضّ للبصر.

والخلاصة أن للقلب (الباطن) حجابًا كما أن للبدن (الظاهر) حجابًا، ولكل حدوده وأحكامه، فلا يجوز افتراض أن تطبيق واحد يغني عن الآخر. وبهذا تم بحمد الله بيان مسألة الحجابين من مختلف الوجوه، ورفع الحُجُب المانعة من إبصار الحق فيها.

لا تعارض بين هيئة الحجاب ومبدأ حسن الهندام، وليس في شرع الله إجمالاً ما يعارض أو يعوق اللباس الحسن، بشرط ألا يكون الحجاب في نفسه زينة تجذب الأنظار

(١) Sawyer, Emma. "Questions of the Pink Dress: Gender Representation and Perception in Contemporary Media." Senior thesis, University of South Carolina, 2016. Accessed June 15, 2025.

(٢) Youtube Channel: PsycHacks. Dr. Orion Taraban. The Most Toxic Relationship Belief. Feb 11, 2023.

(٣) أخرجه مسلم (٩١)، بطر الحق: دفعه ورده على قائله. وغمط الناس: احتقارهم.

(٤) تفسير القرطبي (٢٤٣/١٤).

جوهر الصلاة وثمراتها

د. عمر النشيواتي (*)

الصلاة نور يهدي إلى الحق ويضيء دروب الحياة فتعمّ فيها السكينة والطمأنينة، وهي رحلة روحية ترتقي بالعبد إلى مقام القرب من الله ودوام اتصال القلب به سبحانه، ولا يتحقق ذلك إلا بكمال الاستعداد لها والخشوع فيها. وهذا المقال يلقي الضوء على جوانب من مقاصد الصلاة وغاياتها وجوهرها، ويستعرض شيئًا من أبعادها الروحية وثمراتها العظيمة.

الصلاة قرة عيون المحبين، ولذة أرواح الموحدين، ومحك أحوال الصادقين، وميزان أحوال السالكين، وهي رحمة الله المهداة إلى عبيده، هداهم إليها وعرفهم بها رحمة بهم وإكرامًا لهم؛ لينالوا بها شرف كرامته، والفوز بقربه، لا حاجةً منه إليهم، بل منةً وفضلاً منه عليهم(١)؛ لذا أفاض أهل العلم في الحديث عنها؛ إذ هي عماد الدين وثاني أركانه، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وهي خير الأعمال كما في الحديث: (استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أنَّ خير أعمالكم الصلاة، ولن يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن)(٢).

وهذه المقالة ستتناول الصلاة من زاوية أخرى بالتأمل في مقاصدها وغاياتها وجوهرها، واستعراض شيءٍ من أبعاد الصلاة الروحية وثمراتها العظيمة متلمسين غاياتها وما تدل عليه أفعالها وأحوالها وما يرتبط بها من رسائل وإشارات روحية(٣).

جوهر الصلاة:

إنَّ جوهر الصلاة ولبُّها هو إدامة اتصال القلب بالله تعالى وذكره وتعظيمه كما قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] أي: «أقم الصلاة لي فإنك إذا

(*) طبيب وكاتب مهتم بالقرآن وعلومه.

(١) الكلام على مسألة السماع، لابن القيم، ص (١٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣٧٨) وابن ماجه (٢٧٧).

(٣) أفدت كثيرًا من كتاب قناديل الصلاة لفريد الأنصاري، يرجع إليه لمزيد إفادة.

أقمتها ذكرتني»[١]. وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، فالصلاة «قرب ودعاء وصلة» تصل القلب بخالقه، وتربط العبد بربه، وتقربه منه، وهي لقاء روحي مع الله وطريق متين لتحقيق القرب منه سبحانه، بهذه الصلةِ وهذا القربِ يأنسُ العبد بربه ويضيء القلب بنور الإيمان فيشرق ويسمو.

قال ابن القيم في معرض حديثه عن الصلاة: «وتعبد بها القلب والجوارح جميعًا، وجعل حظ القلب منها أكمل الحظين وأعظمهما، وهو إقباله على ربه سبحانه وفرحه وتلذذه بقربه وتنعّمه بحبه وابتهاجه بالقيام بين يديه، وانصرافه حال القيام بالعبودية عن الالتفات إلى غير معبوده، وتكميل حقوق عبوديته حتى تقع على الوجه الذي يرضاه»[٢].

والصلاة نور: فقد وصف النبي الكريم ﷺ الصلاة بأنها نور (الصلاةُ نور)[٣]، وهو وصف دقيق جليل يوحي بمعنى أصيل لجوهر الصلاة وحقيقتها، حري أن يتأمله المصلي في واقع نفسه وحياته ويقيس مدى انطباقه على واقعه ويسأل نفسه: كم هي شحنة النور التي يخرج بها حين ينفتل من صلاته؟

هذا النور هو الإشراق الروحي الذي ينبعث في قلب المصلي ويمتد إلى حياته كلها، فالصلاة نور يهدي إلى الحق ويبعد عن الظلمات، نور يتجلى أثره في السكينة والإيمان والطاعة، نور يضيء للمصلي ظلمة قلبه ويزيل الغشاوة عن عينه وسمعه وعقله، فيبصر الحق حين يضل عنه آخرون، وينطق به حين يصاب بالعِيّ غافلون.

إنه النور الذي يضيء دروب الحياة، فتعم فيها السكينة والطمأنينة، من هذا النور تنبع الفضائل والثمرات والبركات، وبانعدامه تدوم الظلمات وتتكاثر الخطيئات ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

والصلاة في جوهرها كذلك: رحلة روحية ترتقي بالعبد إلى مقام القرب من الله، وتعرج به في ملكوت الله، ودلالة هذه الرحلة الروحية مستوحاة من قصة فرضيتها في السماء السابعة في رحلة الإسراء والمعراج[٤]، وكأنّ المصلي يعرج بروحه مع كل صلاة يصليها ويرتقي عن كل متاع الدنيا وشهواتها وظلماتها ليصعد إلى حيث النور ليبصر من علوّ، ويتعالى عن متاع الدنيا بكل سموّ، وهكذا كان هديه ﷺ إذا حزبه أمر واشتد عليه شي فزع إلى الصلاة[٥] وعرج بروحه إلى مولاه واتصل بخالقه طالبًا منه العون والتسديد.

جوهر الصلاة ولبُّها: إدامةُ اتصال القلب بالله تعالى وذكره وتعظيمه، وتحقيقُ الإشراق الروحي الذي ينبعث في قلب المصلي ويمتد إلى حياته كلها، والارتقاءُ بروح العبد إلى مقام القرب من الله والعروج به في ملكوت الله

مقاصد الصلاة:

من مقاصد الصلاة: «انشراح الصدر وطمأنة القلب وإراحة البال، ولذلك قال الرسول ﷺ لبلال: (أرحنا بها يا بلال)، كما شُرعت الطهارة والصلاة للغَضبان والمصاب والمكروب وغيرهم.»[٦].

ومن مقاصد الصلاة: تطهير القلب، قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإقامة الصلاة تحرق ما في قلب العبد من ران وفحشاء ومنكر فيتطهر، وكما أن إقامة الصلاة حياة وتطهير للروح، وتحفظ العبد من الوقوع في الشهوات والضلال، فتارك الصلاة بجوهرها وإقامتها كما ينبغي تتخطفه الشهوات ويتلاعب به الشيطان، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

من مقاصد الصلاة: انشراحُ الصدر وطمأنته، وإراحةُ البال، وتطهيرُ القلب، وإصلاحُ النفس وتهذيبُها وتخليصُها من الفواحش والمنكرات والهواجس والأوهام

(١) تفسير الطبري (٢٨٣/١٨).
(٢) مسألة الكلام على السماع، ص (١٠٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).
(٤) ثبتت قصة فرض الصلاة في السماء السابعة في حديث المعراج المشهور الذي رواه مالك بن صعصعة الأنصاري في صحيح البخاري (٣٢٠٧).
(٥) أخرج أبو داوود (١٣١٩) عن حذيفة رضي الله عنه: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبَه أمر صلى).
(٦) علم المقاصد الشرعية، لنور الدين الخادمي، ص (١٧١)، والحديث أخرجه أبو داوود (٤٩٨٥).

وتأمل أمر الله لنبيه ﷺ بأن يأمر أهله بالصلاة والاصطبار عليها: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] والتي تلت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١]، وكأنها إشارة لطيفة لعظيم أثر الصلاة والمصابرة عليها في الاستغناء والترفع عن متع الدنيا وزهرتها والتعلق بها، فانظر إلى أثر ذلك في نفسك وأهلك.

قال ابن القيم : «ولما امتحن سبحانه عبده بالشهوات وأسبابها من داخلٍ فيه وخارجٍ عنه، اقتضت تمام رحمته به وإحسانه إليه أن هيَّأ له مأدبة قد جمعت من جميع الألوان والتحف والخِلَع والعطايا، ودعاه إليه كل يوم خمس مرات، وجعل كل لون من ألوان تلك المأدبة لذة ومنفعة ومصلحة لهذا العبد الذي قد دعاه إلى المأدبة ليست في اللون الآخر؛ لتكمل لذة عبده في كل لون من ألوان العبودية، ويكرمه بكل صنف من أصناف الكرامة، ويكون كل فعل من أفعال تلك العبودية مكفرًا لمذموم كان يكرهه بإزائه، ليُثيبه عليه نورًا خاصًا وقوة في قلبه وجوارحه وثوابًا خاصًا يوم لقائه»[(١)].

ومن مقاصد الصلاة: «إصلاح النفس وتهذيبها، وتخليصها من الفواحش والمنكرات والهواجس والأوهام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾»[(٢)].

> **في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ بعد قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ إشارة لطيفة لعظيم أثر الصلاة والمصابرة عليها في الاستغناء والترفع عن متع الدنيا وزهرتها والتعلق بها**

المفتاح لتحقيق مقاصد الصلاة:

لن يتم للمصلي تحقيق مقاصد الصلاة إلا بالخشوع والقنوت فيها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، وقال: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، بل يُحرم المصلي ثمراتها بانعدام الخشوع فيها؛ لذا ورد النهي النبوي عن الاستعجال في الإتيان إلى الصلاة، وجاء الأمر بالسكينة حتى يتوجه اهتمام العبد إلى ما هو أولى من إدراك الجماعة؛ ألا وهو تحقيق الخشوع والسكينة فيها، كما ثبت عن أبي قتادة قال: (بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمعَ جَلَبَةَ رجال، فلما صلّى قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، قال: فلا تفعلوا، إذا أتيتمُ الصلاةَ فعليكم بالسَّكينة، فما أدركتم فَصلّوا، وما فاتكم فأتمّوا)[(٣)].

إن الصلاة ليست مجرد عبادة ظاهرة تؤدى حركاتها -مع عدم إغفال الاهتمام بصورة الصلاة الظاهرة- إذ لها عظيم الأثر في تحقيق مقاصد الصلاة والوصول إلى جوهرها ولبها، فالظاهر ينعكس على الباطن ويدل عليه، كما أن خشوع القلب ينعكس على خشوع الجوارح. وهنا يستوقف المصلي نفسه على الحقيقة عند كل صلاة، ويتأمل: كم هو حظ نفسه من صلاته وكم كسب منها؟ وكم سرق منها الشيطان وفاته منها؟ قال ﷺ: (إنَّ الرجل لينصرفُ وما كتب له إلا عُشر صلاته، تُسعها، ثُمنها، سُبعها، سُدسها، خُمسها، رُبعها، ثُلثها، نِصفها)[(٤)].

لفتات روحية في الصلاة:

١. تكرار الصلاة خمس مرات:

شرعت صلاة الجماعة على هيئة محددة في أوقات مخصصة في المساجد، يخرج إليها المؤمن خمس مرات في اليوم متجردًا من كل مشاغل الدنيا وتاركًا وراء ظهره كل ما في يده مما يشغله عنها، ومفارقًا بيته وسوقه وعمله ليشهد الصلاة في تلك المساجد، ثم ما يلبث أن يغيب إلا ليرجع مرة أخرى، وكأن في تكرار الخروج إلى صلاة الجماعة في المساجد تأكيدًا من المصلي على تجديد البيعة لمولاه وخالقه، وأخذ العهود على نفسه بين يدي ربه، ليوثق الصلة بخالقه وهو يستشعر ضعفه وجهله وأنه لا غنى له طرفة عين عن خالقه؛ فيكرر ذلك خمس مرات ويشهد على هذا جماعة المسلمين، وكأنه يرجو أن يشهدوا له بالإيمان كما بشّر النبي ﷺ: (إذا رأيتمُ الرجل يعتادُ المساجد، فاشهدوا له بالإيمان)[(٥)].

---

(١) الكلام على مسألة السماع، ص (١٠٩-١١٠).
(٢) علم المقاصد الشرعية، ص (١٧١).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٥) ومسلم (٦٠٣).
(٤) أخرجه أبو داوود (٧٩٦).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٦١٧) وابن ماجه (٨٠٢) واللفظ له، وتشهد لمعناه آية: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

من مقاصد الصلاة

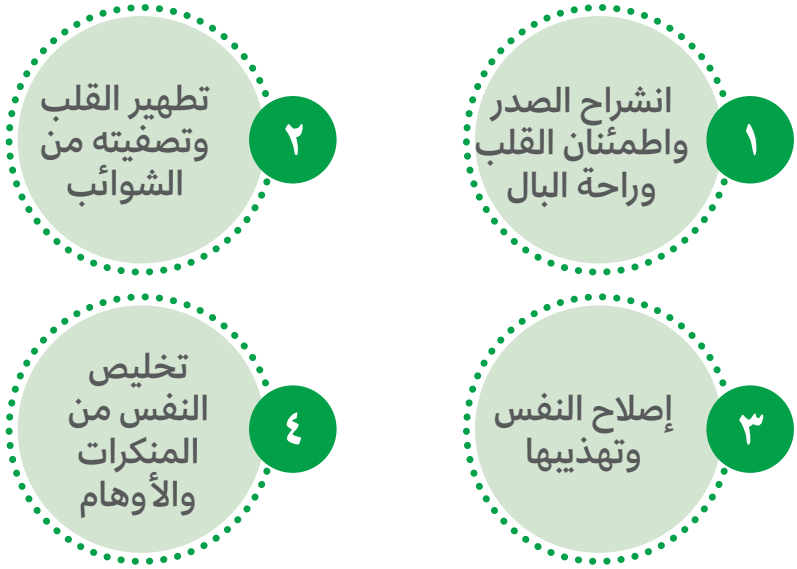

قال ابن القيم: «ولما كانت الجدوب متتابعة، وقحط النفوس متواليًا، جدّد له الدعوة إلى هذه المأدبة وقتًا بعد وقت رحمة منه به، فلا يزال مستسقيًا مَنْ بيده غيث القلوب وسقيها، مستمطرًا سحائب رحمته؛ لئلا ييبس ما أنبتته له تلك من كلأ الإيمان وعشبه وثماره، ولئلا تنقطع مادة النبات. والقلب في استسقاء واستمطار هكذا دائمًا؛ يشكو إلى ربه جدبه وقحطه وضرورته إلى سقيا رحمته وغيث بِرِّه، فهذا دأب العبد أيام حياته»[١].

٢. الأذان (صوت الحق يعمر الكون):

الأذان دعوة إلى الصلاة يعمر الكون بكلمات الحق؛ فصوت المؤذن يمتد ليبشر الخلق، وكلما امتد صوته زاد نوال الله له بالمغفرة والفضل كما جاء في الحديث: (المؤذِّنُ يُغفر له مَدَّ صوته، ويصدِّقه من سمعه من رَطب ويابس)[٢] كما (ويشهدُ له كل ما سمعه)[٣]، وعلى النقيض من ذلك، يفرّ الشيطان من هذا الصدع الصادق بالحق والتوحيد، كما في الحديث: (إذا نُودي بالصلاةِ أدبرَ الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين)[٤].

تأمل في شعيرة الأذان وفي معانيه وكيف أن الشريعة جاءت بالحث على رفع الصوت به والإنصات له والترديد معه وكأنه ينادي في البشر والحيوانات والجمادات أن هلمّوا إلى ما فيه سعادتكم وهناؤكم، وهو يمهد الطريق لأهل الإيمان ويطرد عنهم الشياطين ويهيئ النفوس لمأدبة إيمانية يلقون ثوابها عند الله.

> **الأذان دعوة إلى الصلاة يعمر الكون بكلمات الحق؛ فصوت المؤذن يمتد ليبشر الخلق، ويدعوهم إلى ما فيه سعادتهم وهناؤهم، وهو يمهد الطريق لأهل الإيمان ويطرد عنهم الشياطين ويهيئ النفوس لمأدبة إيمانية يلقون ثوابها عند الله**

٣. الوضوء (تطهير الجسد والروح):

الوضوء شطر الإيمان، كما قال ﷺ: (الطُّهور شطرُ الإيمان)[٥]، والمراد أن «الأجر فيه ينتهي

(١) الكلام على مسألة السماع، ص (١١١).
(٢) أخرجه أحمد (٩٣٢٨) وابن ماجه (٧٢٤).
(٣) أخرجه أبو داوود (٥١٥).
(٤) أخرجه البخاري (١٢٣١) ومسلم (٣٨٩).
(٥) أخرجه مسلم (٢٢٣).

تضعيفه إلى نصف أجر الإيمان»[١]، فهو ليس مجرد نظافة بدنية، بل هو شطر الإيمان، وفيه تطهير روحي يمحو الذنوب، كما في الحديث: (إذا توضَّأ العبد المسلم -أو المؤمن- فغسلَ وجهه خرج من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء -أو مع آخر قطرِ الماء-، فإذا غسلَ يديه خرج من يديه كلُّ خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء -أو مع آخر قطرِ الماء-، فإذا غسلَ رجليه خرجت كلُّ خطيئة مشتها رجلاه مع الماء -أو مع آخر قطرِ الماء- حتى يخرج نقيًا من الذنوب)[٢]، بل إن الوضوء يترك أثرًا نورانيًا يميز المؤمنين يوم القيامة، كما قال النبي ﷺ: (إنَّ أمتي يُدعَون يوم القيامة غُرًا مُحجَّلين من آثارِ الوضوء)[٣].

تأمل هذه الفضائل للوضوء وما يحصل معها من تهيئة للمصلي ليشهد تلك العبادة الجليلة طاهر القلب كما تطهرت جوارحه، ويزول كل ران على قلبه وجوارحه مما يحول بينه وبين ما يحقق مقصود الصلاة؛ فيهتدي بما يسمع ويتأمل كل ما يقول في صلاته من ذكر وورد، فيزداد من النور وتشرق روحه ويشع هدى.

قال ابن القيم: «بالوضوء يتطهر من الأوساخ ويقدم على ربه متطهرًا. والوضوء له ظاهر وباطن؛ فظاهره طهارة البدن وأعضاء العبادة، وباطنه وسره طهارة القلب من أوساخه وأدرانه بالتوبة؛ ولهذا يقرن سبحانه بين التوبة والطهارة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وشرع النبي ﷺ للمتطهر بعد فراغه من الوضوء أن يتشهد ثم يقول: (اللهمَّ اجعلني من التّوابين واجعلني من المتطهرين)[٤]، فكمل له مراتب الطهارة باطنًا وظاهرًا.

فإنه بالشهادة يتطهر من الشرك، وبالتوبة يتطهر من الذنوب، وبالماء يتطهر من الأوساخ الظاهرة، فشرع أكمل مراتب الطهارة قبل الدخول على الله والوقوف بين يديه، فلما طهر ظاهرًا وباطنًا أذن له بالدخول عليه بالقيام بين يديه، فخلص من الإباق بمجيئه إلى داره ومحل عبوديته»[٥].

> **«بالوضوء يتطهر من الأوساخ ويقدم على ربه متطهرًا، والوضوء له ظاهر وباطن؛ فظاهره طهارة البدن وأعضاء العبادة، وباطنه وسره طهارة القلب من أوساخه وأدرانه بالتوبة»**
>
> ابن القيم

٤. المشي إلى الصلاة والرباط في المساجد:

قال ﷺ: (بَشِّر المشَّائين في الظُّلم إلى المساجدِ بالنُّور التامّ يوم القيامة)[٦]، وقال: (من غَدا إلى المسجدِ وراَحَ، أعدَّ الله له نُزُلَه من الجنة كلّما غدا أو راح)[٧]، وجاء الحث بالدعاء بفتح أبواب الرحمة عند دخول المسجد: (اللهمَّ افتح لي أبواب رحمتك)[٨]، مع الصلاة على النبي ﷺ.

تأمل هذه الفضائل التي تتحصل للمصلي من نور في المشي إلى المساجد، خاصة في ظلمة الفجر والعشاء، وأجرٍ ومغفرة ورفعة درجات مع كل خطوة، ثم فتحِ أبواب الرحمة عند دخوله المسجد، ثم وعدٍ بالجزاء في الآخرة بضيافة خاصة على كل غدو ورواح، وما فيها من إشارات روحية تعكس طبيعة ذلك الخروج وأنه ليس مجرّد مشي وخطوات كغيرها، وما فيها من مزيد تهيئة للمصلي ليحقق مقصود الصلاة وقد اكتمل نوره وطهر قلبه وأشرقت روحه.

٥. استقبال القبلة والتراصّ (وحدة القلوب):

إن في استقبال أهل الإسلام جميعًا للكعبة رابطة تجمع المصلين كلهم على قلب واحد ينبض بتوحيد الله، وينبعث من مكة نور يضيء العالم، كما أن تراص الصفوف في الصلاة كتراص الملائكة عند ربهم يعكس الوحدة والانسجام، والمصلي إذ يستشعر أن الرب جل جلاله قِبل وجهه إذا صلى كما في الحديث: (إنَّ أحدَكم إذا كان في الصلاة فإن

(١) شرح صحيح مسلم، للنووي (١٠٠/٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٤).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦) ومسلم (٢٤٦).
(٤) أخرجه الترمذي (٥٥).
(٥) الكلام على مسألة السماع، ص (١١٧-١١٩).
(٦) أخرجه أبو داوود (٥٦١).
(٧) أخرجه البخاري (٦٦٢) ومسلم (٦٦٩).
(٨) أخرجه مسلم (٧١٣).

الله قِبل وجهه)[١]، فهو يستشعر عظمة هذا اللقاء، بل جاء النهي عن أمر حسي لمزيد استشعار عظمة اللقاء والقرب، قال ﷺ: (إنَّ أحدكم إذا كان في الصّلاة فإنَّ الله حِيالَ وجهه، فلا يتنخّمنّ حيالَ وجهه في الصلاة)[٢].

٦. اللقاء الرباني والفاتحة:

تأمل في كل ما سبق من تهيئة وإعداد للمصلي من لحظة الهمّ بالخروج إلى الصلاة، ثم إلى سماع الأذان وفضله، ثم إلى الوضوء وتطهيره للروح قبل الجسد، ثم المشي إلى الصلاة بسكينة، ثم استقبال الكعبة والتراص في الصفوف، حتى يصل العبد إلى اللحظة التي كان ما كان لأجلها؛ إذ يفتتح المصلي صلاته بالتكبير، ثم يضع يديه على صدره ويستفتح صلاته!

فتكبيرة الإحرام (الله أكبر) تعلن بداية هذا اللقاء الرباني الجليل، والاستعلاء عن كل مشاغل الدنيا وطرحها جانبًا، قال ابن القيم: «ثم كَبَّرَه بالتعظيم والإجلال وواطأ قلبه في التكبير لسانه، فكان الله أكبر في قلبه من كل شيء، وصدق هذا التكبير بأنه لم يكن في قلبه شيء أكبر من الله يشغله عنه، فإذا اشتغل عن الله بغيره وكان ما اشتغل به أهم عنده من الله، كان تكبيره بلسانه دون قلبه»[٣].

ثم في وضع المصلي يديه على صدره دلالة جلية على التأدب والتذلل التام بين يدي الله؛ ليؤذن له بعد ذلك بالثناء على الله في دعاء الاستفتاح وما فيه من تسبيح وتنزيه لله تعالى، ثم يشرع في طلبه مباشرة بتلاوة الفاتحة التي (لم ينزل في التوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الزبورِ ولا في الفرقانِ مثلُها)[٤]، وما فيها من حمد وثناء ودعاء وما فيها من حوار جليل بين العبد وربه، كما في الحديث: (قَسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نِصفين)[٥]، ثم يأتي التأمين بعد الفاتحة متوجًا لهذا الاستهلال الجليل المهيب، وهمّ المصلي وشغله في أن يوافق تأمينه تأمين الملائكة، ليغفر له ما تقدم من ذنبه[٦].

قال ابن القيم : «وكان سِرُّ الصلاة ولبُّها إقبال القلب فيها على الله وحضوره بكليته بين يديه، فإذا لم يقبل عليه واشتغل بغيره وَلَهَا بحديث النفس؛ كان بمنزلة وافد وفد إلى باب الملك معتذرًا من خطئه وزَلَلِــه، مستمطرًا لسحائب جوده ورحمته، مستطعمًا له ما يقوت قلبه؛ ليقوى على القيام في خدمته، فلما وصل إلى الباب ولم يبق إلا مناجاة الملك التفت عن الملك وزاغ عنه يمينًا أو ولّاه ظهره، واشتغل عنه بأمقت شيء إلى الملك وأقله عنده قدرًا، فآثره عليه وصيره قبلة قلبه، ومحلّ توجهه، وموضع سره، وبعث غلمانه وخدمه ليقفوا في طاعة الملك، ويعتذروا عنه وينوبوا عنه في الخدمة، والملك يشاهد ذلك ويرى حاله»[٧].

> **تكبيرة الإحرام (الله أكبر) تعلن بداية هذا اللقاء الرباني الجليل، والاستعلاء عن كل مشاغل الدنيا وطرحها جانبًا**

٧. في الذكر والقراءة:

قال العز بن عبد السلام: «ولما كان مقصود الصلاة الذكر، وجب أن يتعرّف قدرَ المذكور وملاحظته ليُلزم مع الأدب، فافتتح بالتكبير الدال على الكبرياء لمن هو قائم وقاعد وراكع وساجد؛ ليخضع له خضوعًا يجب مثله لكبريائه، فإذا لاحظ كبرياءه لزم آداب الصلاة والطهارة والنظافة الظاهرة والباطنة واشتغل بالله وحده، وأتت هذه الإشارة بقوله ﷺ (وفرّغ قلبه لله)[٨]، وقوله ﷺ لما سُئل عن الإحسان فقال: (أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه)[٩] ومَن عَبَدَ الله كذلك فرّغ قلبه، وخرج عن الأكوان»[١٠].

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦١١١).
(٣) الكلام على مسألة السماع، ص (١١٩-١٢٠).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٧٥).
(٥) أخرجه مسلم (٣٩٥).
(٦) أخرج البخاري (٧٨٠) ومسلم (٤١٠): (إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه).
(٧) الكلام على مسألة السماع، ص (١١٥-١١٦).
(٨) أخرجه مسلم (٨٣٢).
(٩) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٨).
(١٠) مقاصد العبادات، للعز بن عبد السلام، ص (١٩).

وقال: «وأما تفضيل ملاحظة الأذكار والأدعية فينبغي أن يلاحظ في كل ذكر معناه الخاص به، ويستحضره بقلبه ولسانه، ويثني على الله بلسانه مع حضور معناه في قلبه فيكون مثنيًا عليه بقلبه ولسانه، ولا يشغله عن ملاحظة الذكر معنى آخر وإن كان أفضل منه؛ فإن لكل مقام مقالاً، وهكذا أدب القراءة؛ فينبغي أن يقدر نفسه سامعًا للقرآن من الله عز وجل، فيصغي إليه إصغاء العبد الذليل إلى الرب الجليل، ويلاحظ معاني الكلم، ولا يشتغل عن معنى كلمة بمعنى كلمة أخرى وإن كانت أفضل منها؛ فإنه لو اشتغل بغيرها ما هو بصدده لكان معرضًا عن استماع كلام ربه، وذلك سوء أدب، ويدخل به الشيطان على أهل العرفان... قال يحيى بن معاذ الرازي: إن الشيطان ليشغلني عن صلاتي بذكر الجنة والنار»[1].

٨. أفعال الصلاة الظاهرة:

قال العز بن عبد السلام: «وأما أفعالها -أي الصلاة- فالقيام فيها أحد ضروب التعظيم، والركوع والسجود كذلك، ولهذا اختص الركوع بقوله (سبحان ربي العظيم)؛ لأن العظمة تقتضي الذلة والخضوع، فلما صار إلى مجال التذلل اعترف للمعبود بالعظمة الموجبة لذلك الخضوع، فلما صار إلى السجود وهو أشد تذللاً من الركوع اختص بقوله (سبحان ربي الأعلى)، فإنه لما صار إلى غاية الخضوع اعترف للمعبود باستحقاقه العلو المقتضي لغاية الخضوع»[2].

الخاتمة:

الصلاة نور وطهور، اتصال وتزكية، تجمع القلوب وترفع الدرجات، هي خير الأعمال وسبيل القرب من الله، فكم نحرص على إقامتها كما يريدها الله منا، وكم نسعى لأن نرتقي في أدائها مع مرور الأيام وتصرم الأعمار! ففي ذلك الفلاح في الدنيا والآخرة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

قال العز بن عبد السلام: «فانظر إلى ما جمعته الصلوات من الخيرات، واشتملت عليه من البركات، وكيف بدئ أولها بالله عز وجل، ثم بطلب أفضل المهمات وهو هداية الصراط المستقيم إلى الله، وختم آخرها بالثناء على الله عز وجل بالتحيات، ثم بالأهم بعده وهو نفس المصلي إذ يقول: (السلام علينا وعلى عبادِ الله الصالحين)»[3]، جعلنا الله من المفلحين الذين هم في صلاتهم خاشعون، والحمد لله رب العالمين.

الصلاة نور وطهور، اتصال وتزكية، تجمع القلوب وترفع الدرجات، وهي خير الأعمال وسبيل القرب من الله

(١) مقاصد العبادات، ص (٣٣).
(٢) المرجع السابق، ص (١٧).
(٣) المرجع السابق، ص (١٦).

الإسلام بين ضغط التغريب وخلود التشريع

أ. كمال أنمار أحمد (*)

يتناول المقال مسألتين؛ الأولى تبحث في التغريب وأثر المركزية الغربية في التعامل مع الآخر غير الغربي، ونتائج الاستشراق ودوافعه. وتتناول الثانية معنى التشريع وبعض الأمثلة المميزة التي نتجت عن تطبيقه في حضارتنا وتراثنا، ومنها الحسبة والأوقاف وطبيعة النظام القضائي، ويبيّن -ضمنًا- تلك المعركة الحاصلة والموجّهة ضدّ تشريعات الإسلام، وأنها نتاج رؤية ضيقةٍ ذات جذور عميقة.

مركزية الغرب وعقدة الهيمنة:

بعد فشل الاستعمار العسكري الذي فرضته الحضارة الغربية أخذَ الغربيون يعتمدون على صورٍ جديدة من الهيمنة على الشعوب ومقدراتها وعقائدها، وذلك من خلال الغزو الفكري الذي يعدّ جزءًا من سياستهم التي تنبع من تصورٍ «مركزية الغرب»، هذا التصوّر الذي كان مرتبطًا مباشرة وبالضرورة بالاعتقاد بالبنية المنحرفة للآخر(١).

وقد جذّرت فلسفة التفكيك هذا التصوّر؛ إذ رفضت المرجعيةَ الفكرية والأخلاقية، هادفةً من وراء ذلك إلى نسف أي أساس للحقيقة، فليس في ظاهرة التفكيك حقيقة واحدة، بل مجموعة من الحقائق المتناثرة النسبية(٢)، وقد ترتب على هذا جملة من الفلسفات والرؤى المنطلقة من التحرر المطلق من القيمِ والمبادئ التي اعتبرت مجرّد تصوراتٍ عقلية.

هذه المركزية هي التي شكّلت وتشكّل الوعي الغربي بنفسه أولاً، وبالآخر الذي لا يريد أن يرى في موضوعه إلا ما يتقصد أن يراه هو فعلاً ويرغب فيه(٣)، فأصبح مضمون الخطاب الغربي

(*) كاتب ومهتم بالشأن الإسلامي الحضاري والفكري - العراق.

(١) الآخر في الفكر الغربي، لعادل حمدي، ص (٢٤٥).

(٢) مجلة الدراسات الإسلامية، العدد ١١، ص (٥١٧)، الألوهية في الفكر الغربي الديني الحديث.

(٣) المصدر السابق، ص (٢٤٨).

ضيّقًا غير قادر على استيعاب مَن يختلف معه، بل العكس؛ فعنده أنّ كل من ابتعد عن المدار المتصل بذلك المركز هوى إلى الحضيض؛ لأنه فقد اتصاله بالمركز المانح للأشياء أهميتها[١].

وقد أكد الفيلسوف «ماكس فيبر» على كل هذا، بل وأعلن عن وجهة نظر فلسفية ذات طابع اجتماعي مغزاها أن هناك عقلانية خاصة في الحضارة الغربية تميزها عن غيرها؛ ففي الاقتصاد يميّز «فيبر» الغرب بالتنظيم العقلاني الرأسمالي للعمل الحر[٢]، وفي العلم يصرّح أن بحثًا علميًا عقلانيًا منهجيًا متخصصًا وهيئة من المتخصصين المجربين لا وجود لهم في مكان غير أوروبا[٣]، وفي السياسة يختزل وجود البرلمانات ورؤساء الوزراء والديموقراطية بالعالم الغربي وحده، وبالمجمل فهو يوضح أنْ ليس إلا الغرب مكانًا لوجود علم نعترف اليوم بقيمة تطوره[٤].

بعد فشل الاستعمار العسكري الذي فرضته الحضارة الغربية، أخذ الغربيون يعتمدون على صور جديدة من الهيمنة على الشعوب ومقدّراتها وعقائدها؛ وذلك من خلال الغزو الفكري الذي يعدّ جزءًا من سياستهم التي تنبع من تصور «مركزية الغرب»، هذا التصوّر الذي كان مرتبطًا مباشرة وبالضرورة بالاعتقاد بالبنية المنحرفة للآخر

وتوصل في دراسة مستفيضة عن الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية إلى أن الرأسمالية هي من نتاج الروح الدينية البروتستانتية بأخلاقها وقيمها ومعتقداتها، وخصوصًا لدى أتباع الكالفينية؛ إذ إن هذه الطائفة البروتستانتية تعمل على تشجيع الادخار والاستثمار[٥]، وأنّ الأخلاق الدينية -البروتستانتية الكالفينية خصوصًا- هي التي أثّرت أيّما تأثير في الاقتصاد، بل في ظاهرةٍ اقتصادية هي قمّةٌ ما بلغه التفكير العقلاني الاقتصادي: الرأسمالية الغربية الحديثة[٦].

الاستشراق وأزمة الانحياز:

لم تكن هذه الرؤية وحدها هي الأداة للهيمنة على الأرض الإسلامية، بل إنّ التحامل الفكري في كثير من الدراسات الاستشراقية أسهم في صنع انطباع معقد وسلبي لدى الساسة والمفكرين، وهذا الانطباع لم يستطيعوا الانفكاك منه حتى يومنا هذا، ووصلت حدة الانطباع هذه إلى مجتمعنا؛ فنجد فيه مَن ينقم على تاريخنا وتراثنا ويصفه بالوحشي والرجعي والبائد بلا تدقيق ولا رويّة ولا منهج.

ولعلّ ما انتقده «إدوارد سعيد» على المستشرقين يلخّص تلك الرؤية التي تأصّلت شيئًا فشيئًا في كتابات الكثير من روّاد الاستشراق، فهم يرون أنّ كل ذرة من ذرات الشرق تُفصح عن طابعها الشرقي وبالتالي أصبح الإنسان الشرقي شرقيًّا في المقام الأول وإنسانًا في المقام الثاني[٧]. ويرون أن لغة العرب لا تملك الجماليَّة بينما كان العرب متخلِّفين عن الرَّكب، حسب تعبير المستشرق فريدريك شليجل. وأما دينهم فهو مزيجٌ مشوه مستقى من الأصول المسيحية واليهودية!

يعزو «سعيد» سبب هذا الخطاب الشمولي/المتطرف لأسباب سياسية مرتبطة بقضايا الاستعمار تارة وتارة لأسباب ثقافية دينية؛ فهو يقول: «إنّ الاستشراق في جوهره مذهب سياسي فُرض فرضًا على الشرق لأن الشرق كان أضعف من الغرب»[٨]، وبسبب أثر البيئة الثقافية الغربية التي كان ينظر من خلالها المستشرق للشرق فقد دخلت أطروحات متأثرة بالأساس البيولوجي والتفاوت العنصري[٩] في تفسير القضايا الشرقية، وأصبح الانطباع عن الشرق يُقدّم في إطار يجمع بين

(١) مجلة الدراسات الإسلامية، العدد ١١، ص (٢٤٧).
(٢) الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، لماكس فيبر، ص (٩).
(٣) المصدر السابق، ص (٦).
(٤) المصدر السابق، ص (٥).
(٥) مقال: «قراءة في الرؤية الغربية وريادة الحضارة الإسلامية»، موقع الجزيرة، كمال أنمار.
(٦) مقال ماكس فيبر: «الدين وأخلاق العمل والرأسمالية»، موقع الحكمة، برّاق زكريا.
(٧) الاستشراق، إدوارد سعيد، ص (٣٥٩).
(٨) المصدر السابق، ص (٣٢١).
(٩) المصدر السابق، ص (٣٢٤).

الحتمية البيولوجية والتوبيخ السياسي والأخلاقي معًا[١].

وإننا لو راجعنا مسألة أصل الاهتمام بدراسة الشرق الأوسط ولغات شعوبه والإسلام بشكل خاص لوجدنا أن دافعه في بداية الأمر هو: انخراط الغرب في شؤون الشرق خصوصًا بعد الغزو الفرنسي لمصر، إضافة لذلك فإن هناك باعثًا عمليًا كبيرًا يقف خلف هذه الدراسات، وهو ناتج عن انطلاقة القوة العثمانية ونهضتها[٢]، كما أن الحاجة للاستخبارات السياسية والعسكرية من جهة ومناسبات التجارة من جهة أخرى كانت تستدعي دراسة جديدة وأكثر عملية للمنطقة[٣].

ولو انتقلنا من البحث في أسباب الاستشراق وأهدافه إلى مضمون ما كتبه الكثير من المستشرقين لوجدنا أنّ هناك حملات كبيرة -عند بعضهم- على منهج الإسلام، فنجد في كتبهم مشاريع كثيرة منها التشكيك بآثار الإسلام ونبوّة نبيّه وصحابته، وعند آخرين منهم منهج في التقليل من أهمية السنة النبوية وأنسنة الإسلام ونسبته للمذاهب المسيحية اليهودية، وقد اتبعوا في ذلك مناهج استقرائية مادية متحيّزة، وقد ساعد الإعلام الغربي والعربي مؤخرًا على نشر مثل هذه الشبهات، والقصد من وراء ذلك هو الهجوم على الإسلام، وبتعبير «سفر الحوالي»: أن هذه الحملات لا تخص تنظيمًا معينًا ولا تتمحور حول ما يسمى الإرهاب وإنما تهاجم الإسلام في ذاته[٤].

لكن هذه الحملات فشلت فشلاً ذريعًا؛ وذلك لأن الإسلام ينتقل من إنسان إلى إنسان ومن أمة إلى أمة بسهولة ويُسر، وكأن له أجنحة قدسية تحمله وتجري به مجرى الريح[٥]، ولأن الإسلام لا يولد طفلاً صغيرًا وإنما يولد عملاقًا هائلاً[٦]؛ فقد وقف أمام كل شبهة وفنّدها أوضح تفنيد وفق منهج ربّاني منطقي عقلاني، وهذا هو المنهج ذاته الذي واجَهَ كل شبهة طوال هذه القرون، فلم يقف تساؤل أو شك أمامه إلا وحلّه وفكّ معضلته حتى وصل بالإنسان إلى تكوين حضارة كبرى وعظمى ذات طابع أخلاقي راشد، هذه الحضارة التي أثرت في العالم أجمع؛ فما من ناحية من نواحي تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها، ونرى تأثير العقلانية الإسلامية والشريعة الإسلامية في أخلاق الأمم اجتماعها وتشريعها في أوروبا النصرانية وفي الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامي[٧].

في كتابات المستشرقين حملات كبيرة على الإسلام، بدءًا من التشكيك بصحّته ومحاولة أنسنته ونسبته للمذاهب المسيحية اليهودية، إلى التشكيك بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلّم والطعن في صحابته، إلى التقليل من أهمية السنة النبوية، إلى غير ذلك من الطعون التي فشلت فشلاً ذريعًا؛ رغم ضخامة الجهد المبذول ودعم الدُوَل وترويج الإعلام

التشريع الإسلامي؛ تعريفه وآثاره:

يمكن تعريف التشريع الإسلامي بأنه: «سن القوانين التي تُعرف منها الأحكام لأعمال المكلفين وما يحدث لهم من الأقضية والحوادث»[٨]، وقال الدكتور محمد الزحيلي: «إنّ التشريع اصطلاحًا لم يعرّفه الفقهاء، وإنما عرفوا مضمونه ومحتواه، وهو: الحكم الشرعي»[٩].

ويتناول الشرع في موضوعاته جوانب الحياة كلها، لا بل يتناول مشاكل الإنسان المعاصرة ويُخرج لها الحلول، فهو لا يقف عند الظواهر فقط، بل يغوص إلى أعماق المشكلة[١٠]، وهو بذلك يتحدّى كُل ما أنتجه وينتجه الفكر الإنساني من

(١) الاستشراق، إدوارد سعيد، ص (٣٢٥).
(٢) الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، مجموعة مؤلفين، ص (١٣٤-١٣٥).
(٣) المصدر السابق، ص (١٣٦).
(٤) المسلمون والحضارة الغربية، للدكتور سفر الحوالي، ص (١٠٣).
(٥) في أروقة التاريخ، لمحمد إلهامي، ص (٤٤).
(٦) المصدر السابق، ص (٢١٠٤).
(٧) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسين الندوي، ص (١١٦).
(٨) التشريع الإسلامي خصائصه ومقاصده، لعبد الفتاح تقية، ص (٨).
(٩) مصطلح التشريع ومشتقاته في الاستعمال الحقوقي، للدكتور سعد مطر المرشدي، ص (١٩).
(١٠) السبق العلمي في تشريعات القرآن الكريم، للدكتور زكي البشايرة، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين القاهرة، العدد (٣٣)، ص (١١٤٣).

وسائل تحقيق التكافل الاجتماعي في الشريعة

قوانين وأحكام، لتظل حائرة مصدومة من تلك القدرة الإعجازية في خلود التشريع وإلهيته المطلقة.

هذا التشريع الإسلامي هو عين منظومة القيم الربانية التي أرساها الإسلام، وهو يتضمن ما يتعلق بالعبادات والمعاملات والعقائد والأخلاق، وتتداخل أهدافه ومآلاته في الميدان الاجتماعي والإداري بما فيه إدارة الشؤون المالية، ومكافحة الجريمة والرشوة وتقسيم الأموال بالعدل بين الناس وتحقيق التكافل الاجتماعي.

وقد بيّن الدكتور «عبد الفتاح تقية» وسائل تحقيق هذا التكافل الاجتماعي الذي نادى به التشريع، ومنها:

١. تحريم العلاقات التي تولد الحقد والضغينة وتثير المنازعات، كتحريم الخمر والميسر والزنا وعقود الغرر، كما حرم كل ما من شأنه أن يكون سببًا لاستغلال الإنسان مثل تحريم الربا والاحتكار والغش.

٢. تحديد وظيفة اجتماعية لكل حق، بحيث إذا خرج صاحبه عن هذه الحدود تجرّدَ من الحماية المقررة، فالعمل حق يمارسه صاحبه بما لا يضر الجماعة فإن فعل أُجبر على منع وقوع الضرر، كما لو امتنع أرباب السلع الضرورية عن بيعها للناس إلا بزيادة عن قيمتها أجبرهم ولي الأمر على بيعها بسعر المثل.

٣. التزام الدولة بتوفير الحاجات الأساسية للمجتمع، وهو نظام أشبه بنظام التأمينات الاجتماعية... وقد اعتبر الفقهاء هذا الالتزام من فروض الكفاية[١]، ويقع هذا الفرض تحت مضمون القاعدة الفقهية: «دفع الضرر قدر الإمكان».

بين التشريع الإسلامي والروماني:

لّما كان مصدر التشريع الإسلامي هو الوحي الإلهي، فإنّه لابد أن يكون شاملاً جامعًا بين الجزاء في الدنيا وفي الآخرة على حدٍّ سواء، وهذا ما يختلف به عن غيره من القوانين الوضعية، وهو كذلك قد سبق التشريعَ الروماني في تقدير بعض المبادئ العظيمة، ومنها مبدأ انتقال الملكية بمجرّد الاتفاق (أي بلا حاجة إجراءات رسمية)[٢]، ومن الاختلافات الأخرى بين التشريع الإسلامي والقوانين الرومانية: أن الشريعة الإسلامية قنّنت العلاقة بين الدائن والمدين وجعلتها على أساس الود والتعاطف، بينما

(١) التشريع الإسلامي خصائصه ومقاصده، ص (١٧-١٨).

(٢) مقال: «التشريع الإسلامي بين التشريعات الحديثة»، إيلاف فاضل التميمي، مجلة دعوة الحق، العدد (٢٦).

جعل فقه الرومان تلك العلاقة مبنية على القوة والضعف والاسترقاق[١].

إن هذه الاختلافات الهائلة تدعو بلا ريبٍ للنظر في مصادر كلا التشريعين، والنظر أكثرً في تلك الفِرية التي ادّعاها المستشرقون بتأثير الحقوق الرومانية في الفقه الإسلامي. وصاحبُ هذه الفرية وهو المستشرق الإيطالي «سانتيلانا»؛ تراجع عن قوله بهذا الأثر ولم يتردد في التصريح بأنه: «عبثًا نحاول أن نجد أصولاً تلتقي فيها الشريعتان الشرقية والغربية... إنّ الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا؛ لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلاً»[٢].

لقد تراجع هذا المستشرق عن أقواله، ولكن المشكلة أن العديد من المتأثرين به لا أظنهم يتراجعون، بل هم سيصرون ويجمعون الأدلة على شبهاتهم ناسينَ أو متناسين أن الحضارة الإسلامية -سواء نظرنا إلى منتجاتها الفكرية من ناحية الكم أو نظرنا إليها من ناحية الكيف- فإننا سنجد الفقه يحتل الدرجة الأولى بدون منازع، وأن الفقه إنتاج عربي إسلامي محض، وهو العطاء الخاص بالثقافة العربية الإسلامية[٣].

ولو ابتعدنا عن مكانة الفقه ومقارنته مع غيره، وتوجهنا نحو الفقهاء المسلمين لوجدنا أنهم امتازوا على فقهاء الرومان، بل امتازوا على فقهاء العالم؛ باستخلاصهم أصولاً ومبادئ عامة من نوع آخر، هي أصول الأحكام من مصادرها، وهذا ما أسموه بعلم أصول الفقه[٤]، هذا العلم الذي يمثّل أول محاولة في العالم استهدفت إنشاء علم للقانون متميز عن القوانين التفصيلية[٥].

الأوقاف:

وضّحنا سالفًا أنّ التشريع الإسلامي كان يجمع بين الدنيا والآخرة، فكان هناك جزاء يترتب وثواب يتأتّى من فعل الخيرات والالتزام بالحدود، وكان من ثمرة هذا الجمع الإلهي: الأوقاف التي تمثّل الحجر الأساس الذي قامت عليه كل المؤسسات الخيرية في تاريخ حضارتنا[٦]، فانتشرت هذه الأوقاف وتنوعت، فمنها المساجد والبيمارستانات والخانات والمدارس الدينية والأسبلة والرباطات والتكايا.

ولو قلّبنا في تاريخنا لوجدنا فيه من الأوقافِ ما يجعلنا في غاية العجب، ومثال ذلك أنه كان في مدينة مرّاكش بالمغرب مؤسسة وقفية تسمى دار الدُّقة؛ وهي دار تذهب إليها النساء اللاتي يقع بينهن وبين أزواجهن نفور وبغضاء، وكانت هناك أوقاف لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والأفراح، بل وهناك وقف لختان الأولاد وإعطائهم كسوة ودراهم[٧].

> **مصدر التشريع الإسلامي هو الوحي الإلهي، وهذا يجعله شاملاً بحيث يتناول جوانب الحياة كلها، ويضع الحلول لمشاكل الإنسان في كل مكان وزمان، متفوّقًا على غيره من الشرائع والقوانين، جامعًا بين الجزاء في الدنيا وفي الآخرة على حدٍّ سواء**

الحسبة:

وهي واحدة من مميزات وثمرات التشريع الإسلامي، والحسبة شرعًا هي: الأمر المعروف إذا ظَهَرَ تركُه والنهي عن المنكر إذا ظَهَرَ فعله[٨]، ولكنها أخذت تتطور مع تطوّر الفكر والمجتمع الإسلامي، وصارت الحسبة تعني: مُشارفة السوق والنظر في المكاييل والموازين ومنع الغش والتدليس فيما يباع من مأكول ومصنوع[٩].

وقد أخذت وظيفة المحتسب تتطور أكثر في ظلّ الخلافة العباسية؛ فأُنيطت بالمحتسب وظائف أخرى تتعلق بالإشراف على نظافة الأسواق والمساجد

(١) السبق العلمي في تشريعات القرآن، ص (١١٥٠).
(٢) تكوين العقل العربي، لمحمد عابد الجابري، ص (٩٧).
(٣) المصدر السابق، ص (٩٦).
(٤) مقال: «التشريع الإسلامي بين التشريعات الحديثة».
(٥) تكوين العقل العربي، ص (٩٩).
(٦) ماذا قدّم المسلمون للعالم، لراغب السرجاني، ص (٤٧٧).
(٧) المصدر السابق، ص (٤٨١).
(٨) الأحكام السلطانية، للماوردي، ص (٣٤٩).
(٩) الحسبة في الإسلام، لأحمد المراغي، ص (٥).

ومراقبة الموظفين للتقيد بالأعمال، حتى مراقبة المؤذن والقضاة، بل وامتحان واختيار ذوي المهن والحرف[١]، كما جاء ذلك في أمثلة عديدة في تاريخنا.

يجدر بنا أن نشير إلى أنّ هذه الوظائف المبتكرة إنما أُسست على منهج النبوة والوحي وتعتمد على أصول من القرآن والسنة، فالرسول ﷺ كان أول محتسب عرفناه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مر على صُبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: (ما هذا يا صاحب الطعام؟) قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني)[٢].

من ثمرات التشريع الإسلامي: الأوقاف التي تمثّل الحجر الأساس الذي قامت عليه كل المؤسسات الخيرية في تاريخ حضارتنا، والحسبة التي تعبّر عن الفاعلية الفردية والمجتمعية للإبقاء على المعروف والانتهاء عن المنكر، والقضاء الذي يهدف لتحقيق العدل ومنع الظلم بأسس راسخة ووسائل ميسّرة

النظام القضائي:

الإسلام بمبادئه كافة يهدف للقيم السامية، ويعلي شأن العدل في الحكم القضائي؛ وجاءت الآيات المباركة في الحث على العدل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وعن الرسول الكريم ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا)[٣]، وعنه ﷺ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل -وكلتا يديه يمين- الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[٤].

إنّ هذا التأكيد المستمر في الآي الكريم والحديث الشريف على العدل يؤكد لنا عظيم أهميته في حياة الناس، لذا ولكي تُؤدّى وظيفة العدل على أكمل وجه قَنّنَ فقهاؤنا قواعد وشروط صارمة لتولّي منصب القضاء، وفي الوقت ذاته كان النظام القضائي يأخذ شكلاً بسيطًا في هيكلته؛ حيث إنّه يتميز بالبساطة الحكيمة الخالية من كل التعقيدات والشكليات والبعد عن الهيمنة والاستعلاء والتأله[٥]، وهذه البساطة الحكيمة لا تضيع وقت المتقاضين ولا تثقلهم بالنفقات القضائية التي تُدفع عادة في العالم المتمدن[٦]، وقد وصف لوبون القضاء ونظام المرافعات بأنّه: «بسيط للغاية؛ أي إنه يقوم بالقضاء قاض منفرد معيّن من قبل ولي الأمر ولا تستأنف أحكام القاضي، ويحضر الخصوم أمام القاضي بدعوة، ويترافعون مشافهةً[٧].

ومع تطوّر الحياة الاجتماعية والاقتصادية تحت ظل الشريعة الإسلامية أخذت مؤسسة القضاء بالتطور، ولكن إجراءاتها المذكورة آنفًا لم تتغير، إذ ظهرت وظائف جديدة في العصر العباسي مثل صاحب المسائل، وكانت وظيفته التحقيق في المسائل التي يعهد بها القاضي إليه، وأول من استعمله القاضي محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى صاحب أبي حنيفة[٨]، كما ظهرت وظائف أخرى في النظام القضائي هي: القسّام الذي يتولى قسمة الحقوق بين أصحابها ويسمّى بالحسّاب أيضًا، وكذلك وظيفة الأمناء الذين يكلفهم القضاة ببعض الأعمال المهمة، مثل حفظ أموال اليتامى والقاصرين وحفظ التركات[٩]، وغيرها من الأعمال.

من أمثلة عناية الشريعة بالتفاصيل:

عمق التشريع وتفاصيله المقننة:

اعتنت الشريعة بأدق تفاصيل الأحكام، ففيما يتعلّق بحقوق الحيوان على سبيل المثال: راعت الشريعة حقوق الحيوان وحالته النفسية وكيفية

(١) ينظر: ماذا قدم المسلمون للعالم، ص (٥١١).
(٢) أخرجه مسلم (١٠٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)
(٤) أخرجه مسلم (١٨٢٧).
(٥) مقال: القضاء في الإسلام، للدكتور عبد الرحمن بن معلا اللويحق، على موقع الألوكة.
(٦) حضارة العرب، لغوستاف لوبون، ص (٤٠٤).
(٧) المرجع السابق، ص (٤٠٣).
(٨) ماذا قدم المسلمون للعالم، ص (٥٤٦).
(٩) المصدر السابق، ص (٥٤٧).

ذبحه وإطعامه، وقد صاغت مبادئ الشريعة حقوقًا للحيوان نفسه وحالته النفسية! وقد عنون الإمام البخاري في صحيحه كتابا سمّاه «كتاب الذبائح والصيد»، وذكر فيه ذلك الحديث العظيم الذي يبيّن المراعاة الشاملة لآداب التعامل مع الحيوان؛ ففي حديث ابن عمر ﷺ أنهم مروا بفتية أو بنفر نصبوا دجاجة يرمونها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، وقال ابن عمر: من فعل هذا؟ إن النبي ﷺ (لعن من فعل هذا)[١]، وفي روايةٍ: (لعن النبي ﷺ من يمثل بالحيوان)[٢].

وجاء في حديث آخر عن كيفية الذبح وعدم تعذيب الحيوان حتى وصل لدرجة ألا يرى الحيوان السكين الذي سيُذبح بها! فقد روى الطبراني: مر رسول الله ﷺ على رجل واضع رجله على صفحة شاة، وهو يحد شفرته، وهي تلحظ إليه ببصرها، قال: (أفلا قَبْلَ هذا؟ أوَتريد أن تميتها موتتين)[٣].

وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ قال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته)[٤]، كما حرم النبي ﷺ التلهي بصيد الحيوان، بل ونهى عن لعنه[٥].

ومن تلك المواقف العظيمة التي نقف عندها ونتأمّل إنسانية النبي ﷺ وربانية رسالته، أنه ﷺ دخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حَنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفراه فسكت، فقال: (مَن رب هذا الجمل، لمن هذا الجمل؟) فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، قال: (أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؛ فإنه شكا إلي أنك تُجيعه وتُدئبه)[٦].

كلمة أخيرة:

ما سبق لمحة موجزة على ما أنتجته الحضارة الإسلامية من خلال الشريعة الربانية التي انتهجتها، والتي أُعجِبَ بمثاليتها وعظيم قوانينها وأثر أحكامها حتى مَن لا يؤمنون بها، وأمامَ هذا الشرع لا يمكن لأي منصف إلا أن يقول فيه ما يمليه عليه ضميره، حتى لو كان مخالفًا له وغريبًا عنه.

فها هو ذا الأديب الروسي «ليو تولستوي» يبشّر بعظمة الشريعة ويقول: إنها «ستعمُّ كل البسيطة؛ لائتلافها مع العقل وامتزاجها بالحكمة والعدل». وأبدى المستشرق البريطاني «مونتغمري وات» رأيه في أن الشريعة «تختلف اختلافًا واضحًا عن جميع أشكال القانون؛ إنها قانون فريد في بابه، إن الشريعة الإسلامية هي جملة الأوامر الإلهية التي تنظِّم حياة كل مسلم من جميع وجوهها»[٧].

ولعله من المناسب أن أختم بقول منصف نقله «غوستاف لوبون» عن العالم المتدين مسيو «لوبْلِه»: «صان المسلمون أنفسهم حتى الآن من مثل خطايا الغرب الهائلة فيما يمس رفاهية طبقة العمال، وتراهم يحافظون بإخلاص على النظم الباهرة التي يسود بها الإسلام بين الغني والفقير والسيد والأجير على العموم، وليس من المبالغة أن يقال إذن: إن الشعب الذي يزعم الأوربيون أنهم يرغبون في إصلاحه هو خير مثال في ذلك الأمر الجوهري»[٨].

اعتنت الشريعة بأدق التفاصيل، حتى إنّها راعت حقوق الحيوان وحالته النفسية؛ فشرعت تشريعات تأمر بالعناية به وإطعامه، وتحرّم الإساءة إليه وإرهاقه، وتوصي بالإحسان إليه حتى عند ذبحه

(١) أخرجه البخاري (٥٥١٥).
(٢) أخرجه أحمد (٣١٣٣).
(٣) أخرجه الطبراني (١١٩١٦)، والحاكم (٧٥٦٣).
(٤) أخرجه مسلم (١٩٥٥).
(٥) أخرج مسلم (٢٥٩٥) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (خذوا ما عليها ودعوها؛ فإنها ملعونة).
(٦) أخرجه أبو داود (٢٥٤٩)، ذِفراه: أصل أذنيه، تُدئبه: أي تتعبه.
(٧) مقال: قالوا عن الشريعة الإسلامية، للدكتور محمد يسري إبراهيم، على موقع الألوكة.
(٨) حضارة العرب، ص (٤٠٤).

الخوف من الإسلام: بين الواقع والادّعاء

أ. هند معوض (*)

يواجه الإسلام تحدّيات كبيرة تستهدف النيل من ثوابته، ومحاولة الحدّ من انتشاره، من خلال طرق كثيرة قديمة قِدَم الإسلام ومتجدّدة بتجدّد العصور، يأتي في مقدّمتها محاولة ثني الناس عن مجرّد السماع لأفكاره ومبادئه بوعي وإنصاف، من خلال التشويه المتعمّد لعقائده، وبثّ الشبهات والأكاذيب حوله، واتهامه وأتباعه بتهم باطلة، فإلى أي حدّ وصلت هذه المواجهة؟ وما هي آثارها على أرض الواقع؟ وما طرق مقاومتها؟ هذا ما سيجيب عنه هذا المقال.

في عالم متسارع الخطى، متشابك الأفكار والمعتقدات، تغيب كثير من الحقائق خلف الغمام، ويبقى لزامًا علينا أن نزيل عنها الغبار لتظهر الحقيقة واضحة جلية للعيان، ومن تلك الأفكار المختلطة ما يواجهه الإسلام من تحديات كبيرة تستلزم التفكير النقدي والردود القاطعة، خاصة وأنّه في السنوات الأخيرة علت أصوات المستشرقين التي تنال من ثوابت الإسلام وتصفه بما ليس فيه.

ومن الأمور التي يكثر المستشرقون من طرحها للنيل من الإسلام وثوابته: قضايا الجهاد وشبهة انتشار الإسلام بقوّة السيف، وقضايا المرأة، وحرية التعبير والمعتقد، والتعايش بين المسلمين وغيرهم، واتهام الإسلام والمسلمين بالوحشية، وغير ذلك من الأمور التي أدّت في بعض المجتمعات إلى ظهور الخوف المبالغ فيه من الإسلام، ومعاداته بطريقة غير عقلانية، وهو ما بات يعرف بـ (الإسلاموفوبيا).

في هذا المقال نستعرض هذه الظاهرة وأسبابها مع بيان المآلات التي تنتهي إليها هذه الدعاوى والادعاءات.

> **يواجه الإسلام حملات للنَيل منه وتشويه صورته من قِبل أعدائه، وهذه الحملات لم تتوقف على مرّ العصور، لكن زادت حدّتها في هذا العصر بطريقة غير مسبوقة، لا سيما في بلاد الغرب التي تتشدّق بدعاوى الحرية والمساواة وحقوق الإنسان ونبذ العنصرية**

(*) كاتبة وأديبة مهتمة بالقضايا الاجتماعية والأخلاقية - مصر.

تشويه الدين الصحيح وأتباعه دأب الكافرين على مرّ التاريخ:

لطالما واجه أنبياء الله -عليهم السلام- حملات النيل منهم والتشكيك في دينهم، من لدن نوح -عليه السلام- إلى محمد ﷺ، ومن ذلك ما ردّده فرعون من ادعاءات وأكاذيب بحقّ نبي الله موسى عليه السلام، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، فهذا فرعون الذي يقول للناس: أنا ربكم الأعلى، يطلب من حاشيته الإذن بقتل موسى، ويبرّر طلبه هذا بالخوف على دينهم -الذي يجعل منه ربهم الأعلى- من التبديل، أو خوفه من أن ينشر الفساد في أرض مصر!

وحصل مثل ذلك مع نوح عليه السلام: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، وهُدد لوط بالطرد والإبعاد: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]. بل إنّ العديد من أنبياء الله تعرضوا للقتل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

وقد تعرّض نبينا محمد ﷺ لكلّ ذلك؛ فقد اتهمه قومه بالكذب والجنون والكهانة والسحر، وآذوه وسخروا منه، ولما عجزوا عن صد الناس عنه حاولوا قتله، ثمّ أخرجوه من مكّة فهاجر إلى المدينة، ثمّ دارت رحى الحرب بينه وبينهم حتى أذن الله للحق أن ينتصر وللنور أن ينتشر.

وسأذكر هنا مثالين من التشويه الذي تعرضت له دعوة النبي ﷺ في مهدها:

المثال الأول: قصّة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي:

كان الطفيل بن عمرو الدوسي ﷺ يحدّث: أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفًا شاعرًا لبيبًا، فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئًا.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعتُ أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني -حين غدوت إلى المسجد- كرسفًا؛ فرَقًا من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه. قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائمٌ يصلي عند الكعبة. قال: فقمت منه قريبًا فأبى الله إلا أن يُسمعني بعضَ قوله. قال: فسمعت كلامًا حسنًا، قال : فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؛ فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته؟ ... إلى أن قال: وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه. قال: فأسلمتُ وشهدت شهادة الحق[1].

ومن الواضح في هذه القصّة تأثير الكلام الذي نشره زعماء قريش عن دعوة النبي ﷺ؛ حتى خاف الطفيل ﷺ من أن يتسرب إلى أذنه شيء من كلامه ﷺ.

المثال الثاني: قصّة إسلام ضماد الأزدي:

عن ابن عباس ﷺ أن ضمادًا ﷺ قدم مكة -وكان من أزْد شَنوءة- وكان يرقي من هذه الريح [يعني من الجنون]، فسمع سفهاءَ من أهل مكة يقولون: إن محمدًا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه، فقال: يا محمد! إنّي أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ [يعني: هل أرقيك]، فقال رسول الله ﷺ: (إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد)، فقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: «لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر [أي وسطه]»، فقال: «هات يدك أبايعك على الإسلام»، فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: (وعلى قومك؟) قال: «وعلى قومي»[2].

(١) سيرة ابن هشام (٣٨٢/١). الكُرسُف: القطن.
(٢) أخرجه مسلم (٨٦٨).

وهنا كما نرى كذب الفرية التي نشرها سفهاء قريش بأن النبي ﷺ مجنون! حاشاه.

وهذه الأساليب يتبعونها بعد عجزهم عن مقارعة حجج الأنبياء وبراهينهم بالحجة والبيان؛ فيلجؤون إلى أساليب أخرى ليمنعوا أقوامهم من الاستماع إلى صوت الحق وداعي الحكمة والبصيرة، وإذا كان هذا حال الأنبياء مع أعدائهم وهم صفوة الله من خلقه، فلن يكون أتباعهم في منأى عن مثل ذلك، وعليهم أن يقتدوا بهم في التصدّي لهذه الحرب، والصبر عليها، والانتصار فيها.

(الإسلاموفوبيا) وتأصيل الخوف من الإسلام:

«الإسلاموفوبيا» كلمة مستحدثة تتكون من شقين: (الإسلام، فوبيا)، و«فوبيا» هي لاحقة يُقصد بها الخوف والرهاب غير العقلاني من شيء يتجاوز خطره الفعلي المفترض.

وقد عرّف الباحث في مقارنة الأديان السويدي ماتياس غارديل المصطلح على أنّه: «الإنتاج الاجتماعي للخوف والتحامل على الإسلام والمسلمين، بما في ذلك الأفعال الرامية إلى مهاجمة أشخاص أو التمييز ضدهم أو عزلهم بناء على افتراضات ارتباطهم بالإسلام والمسلمين»[1].

ورغم أنّ هذا المصطلح قد ظهر مع بداية الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، إلا أنّه ازدهر وظهر جليًا عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١م والتي وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان المصطلح يعني «رُهاب الإسلام» والذي كشف عن تأزم العلاقة بين الغرب والإسلام، وزيادة الاعتداءات الموجهة ضد المسلمين في الغرب.

وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية من أكثر البلدان التي تشهد جرائم كراهية ضد المسلمين، وقد ذكر مكتب التحقيق الفدرالي الأميركي (FBI) في مايو/ أيار ٢٠١٧م أنّ نسبة تلك الجرائم شهدت ارتفاعًا بنسبة ٦٧٪ عام ٢٠١٥م، مشيرًا إلى أنّ عدد المجموعات المعادية للمسلمين في تزايد خاصة بعد الحملات الإعلامية الموجهة من الغرب ضد المسلمين.

وخلصت دراسة أجراها مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية (كير) إلى أنّ عدد الاعتداءات على المسلمين في ٢٠١٦م تجاوز ألفي اعتداء مقابل ١٤٠٠ اعتداء سنة ٢٠١٥م.

وذكر بيان لجمعية مكافحة الإسلاموفوبيا في فرنسا أنّ البلاد شهدت عام ٢٠١٦م حدوث ٤١٩ جريمة تمييز، و٣٩ جريمة مضايقة وتحرش، و٢٥ هجومًا، و٩٨ حادثة خطاب يحض على الكراهية والاعتداء على المباني الدينية، إضافة إلى بعض الجرائم التي وصلت إلى حدّ القتل بوحشية. كما شهدت العاصمة البريطانية لندن عام ٢٠١٧م اعتداءات متنوّعة على مسلمين شملت الاعتداء بالضرب في الشارع ونزع الحجاب بالقوة.

> **«الإسلاموفوبيا» يعني: الخوف الجماعي من الإسلام، والتحامل على المسلمين والقيام بجرائم الكراهية أو التمييز ضدهم؛ لمجرّد كونهم مسلمين**

ولعل أقسى ما مر على المسلمين عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول هو حرب العراق وأفغانستان التي سببت دمارًا كبيرًا لهاتين الدولتين، وخلّفت مئات الآلاف من الشهداء والجرحى، وأوقعتهما تحت الاحتلال الأمريكي لسنوات طويلة.

إنّ حملات التشويه التي يتعرّض لها الإسلام كان لها أثرها المدمر على الأمّة الإسلامية؛ لذا كان لزامًا أن نبرئ الإسلام من تلك الشبهات التي نالت من سماحته ورحمته بالبشر أجمعين.

النيل من الإسلام من خلال الادعاءات الزائفة:

لم يختلف سلوك أعداء الإسلام في زماننا هذا عن سلوك أمثالهم في العصور السابقة، فما تزال حملات التشويه والتزييف تحاك ضده، وذلك عن طريق إثارة الكثير من الادعاءات الكاذبة التي تهدف إلى التخويف من الإسلام وتشويه صورته أمام الناس وترهيبهم من الاقتراب منه والاستماع إليه.

وتعدّ قضايا حقوق المرأة من أهم القضايا التي استغلها المستشرقون للنيل من الإسلام، متهمين إياه أنه يمارس التمييز ضد المرأة، ويمنعها من الكثير من حقوقها، ويستشهدون على ذلك بإطلاقات ذات تحيزات مسبقة لا تخلو من مغالطات واضحة؛ مثل مسألة الميراث وتعدد الزوجات وغيرها، بل شنُّوا حربًا شعواء على الإسلام عنوانها (ظلم الإسلام للمرأة)، متجاهلين أنّ الإسلام كرّم المرأة، ومنع ظلمها،

(١) مقال: «من أين يبدأ الكفاح ضد الإسلاموفوبيا؟»، للدكتور ياسين أقطاي، على موقع الجزيرة نت.

وأعطاها حقوقها كاملة في التعليم والعمل والميراث وغيره، يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وذلك قبل ١٤ قرنًا، عندما كانت بقية الشعوب تناقش بشرية المرأة، فضلاً عن منحها حقوقها.

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «أيّ مطالع للقرآن الكريم والسنن الصحاح يرى المرأة جزءًا حيًا من مجتمع حي؛ فهي تتعلم، وتتعبد، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتجاهد -إذا شاءت- في البر والبحر، وتؤخذ منها البيعة على معاقد الإيمان والأخلاق، وتعارض الحكم أو تؤيد»[1].

ومن التهم المعلبة: اتهام الإسلام أنّه دين العنف والإرهاب، مستندين في ذلك إلى بعض الأحداث التاريخية المجتزأة عن سياقها، وإلى سلوك بعض الجماعات المتطرفة التي تدعي أنّها تمثّل الإسلام ظاهرًا لا باطنًا، ولكن مثل ذلك الادعاء يتغافل عن حقيقة إنسانية مهمّة ألا وهي أنّ العنف لا يقتصر على دين معين، لكنّه سلوك إنساني يمكن أن يظهر في أي ثقافة أو دين، كما أن هذه الجماعات لا تخلو من اختراق وتوظيف مدفوع لنشر هذه الصورة المشوهة عن الإسلام.

ومن المزاعم الباطلة: تشكيك المستشرقين في أنّ الإسلام لا يتعايش مع الأديان الأخرى، مستندين إلى الفتوحات الإسلامية، وكذا الصراعات التاريخية بين المسلمين وغيرهم من الشعوب الأخرى التي طالتها تلك الفتوحات. وهذه النظرة تتجاهل الحروب الصليبية وحروب المغول على العالم الإسلامي، كما تتجاهل الفترات التي عاش فيها المسلمون مع غيرهم من أهل الأديان الأخرى في سلام وأمن، كما تُغفل حقيقة أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي تعامل مع أصحاب الديانات الأخرى بعدل تام، تاركًا لهم حرية الاعتقاد والتعايش في المجتمع المسلم دون إبادة أو إكراه أو أذى، يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والدارس للتاريخ يدرك أنّ العنف الذي يُنسب للإسلام هو محض ادعاء، ولو قورن بالعنف الذي مارسته الثقافات والديانات الأخرى فسيتبين زيفه وكذبه.

ويروج بعض المستشرقين لاتهامات باطلة للإسلام بالعنف؛ حيث يعتبرون الجهاد تشريعًا متعطشًا للقتل وسفك الدم، متجاهلين الأبعاد الاجتماعية والروحية والأخلاقية للجهاد في الإسلام، والحقُ أن الإسلام وضع من الأطر التشريعية والأخلاقية للقتال بما لم يُعهد في أي أمة من الأمم.

كما تلعب وسائل الإعلام الغربية دورًا كبيرًا في تشكيل الصورة النمطية عن المسلمين، وغالبًا ما يتم تصويرهم بطريقة سلبية وأحيانًا بطريقة مسيئة، مما يساهم في تعزيز الفهم الخاطئ للإسلام، وهدف ذلك كله هو الصد عن الإسلام وتنفير غير المسلمين من الاقتراب من الإسلام وتعلمه ومخالطة أتباعه.

لم يختلف سلوك أعداء الإسلام في زماننا هذا عن سلوك أمثالهم في العصور السابقة، فما تزال حملات التشويه والتزييف تحاك ضده، وذلك عن طريق إثارة الكثير من الادعاءات الكاذبة التي تهدف إلى التخويف من الإسلام وتشويه صورته أمام الناس وترهيبهم من الاقتراب منه والاستماع إليه

أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١م تفتح النار على الإسلام:

كانت هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١م نقطة تحول في العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي؛ فقد كان من نتائجها أن أعلن الرئيس الأمريكي الأسبق «بوش» الابن الحرب على «الإرهاب» دون تحديد لماهية هذا الإرهاب! ووصف هذه الحرب بأنّها «حملة صليبية مقدسة»، واتّضح لاحقًا أنّ المراد بالإرهاب هو الإسلام الرافض للحداثة الغربية والعلمانية الغربية والقيم الغربية على وجه الخصوص.

ومما يؤكّد ذلك ما كتبه المفكر الاستراتيجي الأمريكي «فوكوياما» في العدد السنوي «للنيوزويك» (ديسمبر ٢٠٠١م – فبراير ٢٠٠٢م)، حيث يقول: «إنّ الصراع الحالي ليس ببساطة ضد الإرهاب، ولكنّه ضد العقيدة الإسلامية الأصولية، التي تقف ضد الحداثة الغربية وضد الدولة العلمانية، وهذه الأيديولوجية الأصولية تمثّل خطرًا أكثر أساسية من الخطر الشيوعي، والمطلوب هو حرب داخل الإسلام، حتى يقبل الحداثة الغربية والعلمانية الغربية والمبدأ المسيحي: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

(١) مقال: المرأة في فكر وحياة الشيخ محمد الغزالي، على موقع: إسلام أون لاين، عماد الدين عشماوي.

وكتب المستشرق الصهيوني «برنارد لويس» في «النيوزويك» (عدد ١٤ يناير ٢٠٠٤م) يقول: «إنّ إرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب، فالنظام الأخلاقي الذي يستند إليه الإسلام مختلف عما هو في المسيحية واليهودية الغربية، وهذه الحرب هي حرب بين الأديان»[١].

لقد اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية تلك الأحداث ذريعة لشن الحرب على أفغانستان وإزالة حركة طالبان من الحكم لرفضها الامتثال للمطالب الأمريكية، وقد تخطت تكلفة الحرب تريليوني دولار، وشاركت فيها القوات البريطانية، إلى جانب أكثر من ١٣٠ ألف جندي من حلف شمال الأطلسي، واستمرت الحرب عشرين عامًا، وقد مارست الولايات المتحدة الأمريكية أبشع الجرائم في أفغانستان، حيث بلغ عدد القتلى نحو ١٤١ ألف أفغاني، من بينهم ٤٣ ألفًا من عناصر طالبان، وما يقرب من ٦٠ ألفًا من عناصر الشرطة والجيش الأفغاني، إضافة إلى ٣٨ ألف مدني أفغاني، ونجم عن الحرب إصابة مئات الآلاف من الأفغان[٢].

وفي عام ٢٠٠٣م شنت الولايات المتحدة الأمريكية حربًا على العراق بزعم وجود أسلحة دمار شامل تنتجها العراق وتخزنها في مخازن سرية، ولكن ثبت كذب تلك الادعاءات لاحقًا بعد تدمير العراق ونهب ثرواته.

ووفق جامعة براون: فإنّه في الفترة بين مارس/ آذار ٢٠٠٣ ومارس/ آذار ٢٠٢٣م بلغ عدد القتلى من المدنيين في العراق مئات الآلاف، إضافة إلى ملايين ما زالوا لاجئين.

ويُشير تقدير جامعة براون إلى تكلفة بيئية عالية يتحملها العراق ممثلة في انبعاث ٩٨ إلى ١٢٢ مليون طن متري من مكافئ ثاني أكسيد الكربون (MMTCO2e) من العمليات العسكرية الأميركية بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٢١م[٣].

وعندما ننظر لحجم الدمار والقتل والخراب الذي حل بأفغانستان والعراق بزعم الحرب على الإرهاب ندرك أنّ المسلمين هم ضحايا الإرهاب والعنصرية المقيتة، وأنّ كل تلك الجرائم التي تمارس بحق بلدان إسلامية لم تلق ذات التنديد الذي حصل عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لا لشيء سوى أنّ الضحايا من المسلمين.

طوفان الأقصى.. الأسباب والنتائج:

انطلقت معركة (طوفان الأقصى) في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٢٣م بهدف تحريك القضية الفلسطينية من رفوف النسيان وعودتها لصدارة اهتمام المواطن العربي والمسلم، وفكّ الحصار البري والبحري والجوي عن غزة والمستمر منذ أكثر من عشرين عامًا، وحل قضية الأسرى الفلسطينيين، وهي حقوق مشروعة للشعب الفلسطيني لا جدال فيها.

ولكن هذه المعركة أعقبتها ردّة فعل عنيفة جدًا تمثّلت في حرب إبادة على الشعب الفلسطيني في غزّة ترقى إلى أن تكون جرائم ضد الإنسانية، ومع ذلك فقد لاقت دعمًا دوليًا كبيرًا، حيث أكد الرئيس الأمريكي جو بايدن أن دعم بلاده لإسرائيل «صلب كالصخر» و«راسخ»، وأضاف أنّ الولايات المتحدة تقف بجانب إسرائيل، ولن تخفق أبدًا في مساندتها.

كما حذت بقية الدول الغربية حذو الولايات المتحدة في موقفها من الطوفان وتوابعه!

وكان الدعم الغربي اللامحدود هو الدافع الأول لإسرائيل لارتكاب الجرائم المروعة بحق الفلسطينيين وأهل غزة حيث إنّ «هيومن رايتس ووتش» أكدت في تقرير لها أنّ السلطات الإسرائيلية تسببت في النزوح القسري الجماعي والمتعمد للمدنيين الفلسطينيين في غزة منذ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٢٣م، حيث نزح حوالي ٩٠٪ من سكان غزة، واضطر الكثير منهم إلى النزوح عدة مرات منذ بدء الحرب.

وقد قتلت إسرائيل منذ ٧ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٢٣م حتى يناير ٢٠٢٥م ما يزيد عن ٤٦ ألفًا، وأصابت أكثر من ١١٠ آلاف آخرين، كما أن هنالك أكثر من ١١ ألفًا ما يزالون في عداد المفقودين، كما تم تدمير ما لا يقل عن ٦٠٪ من مباني قطاع غزة.

ويفيد مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية أنّ نصف مستشفيات غزة البالغ عددها ٣٦

(١) مقال: الحرب الأمريكية على الإرهاب، على موقع إسلام ويب، للدكتور محمد عمارة.

(٢) مقال: تريليونا دولار وعشرات الآلاف من القتلى والجرحى.. هذه حصيلة ٢٠ عامًا من الفشل الأميركي في أفغانستان، على موقع الجزيرة نت، محمد المنشاوي.

(٣) مقال: ٢٠ عامًا على غزو العراق.. أحدث تقديرات تكلفة الحرب منذ ٢٠٠٣م. على موقع الجزيرة نت، محمد المنشاوي.

مستشفى باتت تعمل بشكل جزئي اعتبارًا من ١٤ يناير / كانون الثاني، كما تعرّضت ٨٨٪ من المدارس للضرر أو التدمير، وتعرضت ٩٢٪ من المنازل للضرر أو التدمير، وتم تدمير ٦٨٪ من الأراضي الزراعية، فضلاً عن ٦٨٪ من جميع الطرق[١].

إنّ ذلك العالم المتقدم الذي أدان هجوم المقاومة على قوات الاحتلال رغم كل ما ارتكبه الاحتلال من جرائم بحق الشعب الفلسطيني على مدار تاريخ احتلاله لأرض فلسطين، هو ذاته الذي أصمّ أذنيه وأغلق عينيه عن الجرائم المروعة التي ارتكبها الكيان الصهيوني بحق أهل غزة لمدة تزيد عن ٦٠٠ يوم من الحرب المروعة على المسلمين بغزة.

ورغم كل ما حدث خلال تلك الحرب من فظائع إلا أن الغرب لم يمتعض، بينما ثار غاضبًا عندما ارتفعت أيادي المقاومين لصد العدوان عن شعبهم.

ولو استعرضنا المشهد بكل حيادية نستطيع أن نستنتج مَن هو الإرهابي القاتل المتعطش للدماء المتجرد من القيود الإنسانية والأخلاقية، ومَن هو صاحب القضية العادلة المكتسي بثوب الحق والأخلاق والقيم.

الإقبال على الإسلام يبدد زيف التشويه والادعاءات الباطلة:

من المؤكد أنّ الإسلام يواجه تحديات كبيرة في ظل الخطاب الاستشراقي الذي يتناول الدين من زوايا عدة، ويعمل على التخويف منه واضطهاد أتباعه واتهامهم بما ليس فيهم، ولكن العجيب أنّ كل تلك الاتهامات والحروب وآخرها حرب غزة كان لها دور كبير في إقبال الغرب على الإسلام، حيث كشفت صحيفة «غلوب آي نيوز» عن ارتفاع معدل اعتناق الإسلام في أوروبا بنسبة ٤٠٠ بالمئة منذ بدء العدوان على قطاع غزة.

وتوقعت دراسة أجراها مركز بيو للأبحاث، أنّه بحلول عام ٢٠٥٠م ستصل نسبة المسلمين إلى ٢٠٪ في ألمانيا، و١٨٪ في فرنسا، و١٧٪ في بريطانيا[٢].

إنّ الحرب على الإسلام لا تزيد أتباعه إلا بأسًا وتمسّكًا بدينهم ليقينهم أنّه الدين الحق، وأنّ سنة الله في خلقه هي الابتلاء والتمحيص، ولعل ذلك هو ما يجعل العالم يقف مشدوهًا بتلك الحالة الفريدة وهؤلاء البشر الذين كلما اشتدت المحن ازدادوا تمسكًا بدينهم ودفاعًا عنه مهما كانت التضحيات، وهكذا تحولت الحرب على المسلمين في غزة إلى دعاية متميزة للإسلام، حيث كشفت صلابة معدن المسلمين وصبرهم وثباتهم، وكذا رحمتهم وأخلاقهم الحسنة حتى في الحروب من خلال معاملتهم للأسرى وفق شريعة الإسلام، وكأن الله أراد عزًا للإسلام من خلال تلك الصورة المشرقة لأتباعه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

إن الإسلام جاء لهداية البشرية المتعبة التي ضجت من تجذر الظلم والطغيان على مدى العصور، جاء حاملاً مشاعل العدل والحرية جاعلاً من نبيه ﷺ الرحمة المهداة من رب العالمين إلى البشرية جمعاء، فكيف بأتباعه أن يرضوا الظلم أو يكونوا يدًا للفساد في الأرض؟!

ومهما نالت الأقلام المضللة من سماحة الإسلام وشريعته وشوهت من سمعته، فواجب الأقلام الواعية أن تعيد الصياغة وتحمل هدي الإسلام للبشر جميعًا عبر المنصات الصادقة والمنابر الإعلامية الهادفة.

والله تعالى رد على المفترين على نبيه ﷺ بأقصر سورة في كتابه الكريم، ليؤكد لنا أن هذه الفرى والشبهات تكفيها أقصر السور وأوجز العبارات، وأن الزمن كفيل بإظهار بطلان زيفهم وكذبهم، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، قال صاحب الظلال: «إنَّ الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ولا أن يكون صاحبها أبتر؛ وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي الأزلي الخالد؟ إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله، مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور»[٣].

(١) بالأرقام.. خسائر غزة في أطول حروبها. على موقع الجزيرة نت.
(٢) مقال: ارتفاع معدل اعتناق الإسلام في أوروبا إلى ٤٠٠٪ منذ بدء العدوان الإسرائيلي على غزة بالأرقام، على موقع جريدة الشرق.
(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣٩٨٩/٦).

قراءة في كتاب: «النسوية الإسلامية، بين الانسلاخ والتلفيق» للدكتور سامي عامري

أ. ياسمين الحايك (*)

يعرض الكتاب موضوعًا من أكثر الموضوعات إثارة للجدل والنقاش اليوم: النسوية التي ترفع شعار «الإسلامية»، انتصارًا للمرأة وحقوقها من خلال الأدبيات الإسلامية، ويحاول الكتاب عدم التوقف عند العنوان اللافت، نافذًا إلى جوهر الأفكار والمعاني التي يطرحها هذا التيار، ممحصًا لها على ضوء الأحكام الشرعية والثوابت الدينية.

تعريف بالكتاب:

يتناول الكتاب مفهوم "النسوية الإسلامية" الذي يعدّ من المفاهيم التي أصبحت متداولة في العصر الحالي، والذي يتبادر إلى الأذهان أنه شرعي يستمد أصوله من الشريعة الإسلامية، غير أن الحقيقة غير ذلك، فهذا المفهوم ظاهره الرحمة وباطنه العذاب؛ إذ المقصود منه إفراغ الإسلام من مضامينه الصحيحة لفتح الباب للأفكار الرأسمالية الليبرالية لكي تكون هي المنطلق الأساس في الدفاع عن المرأة وحقوقها تحت عباءة الإسلام.

يقع الكتاب في ١٧٨ صفحة، وقد صدر عن دار رواسخ في الكويت، بطبعته الخامسة سنة ١٤٤٥هـ-٢٠٢٣م.

تعريف بالمؤلف:

سامي عامري، باحث تونسي، ولد عام ١٩٧٥م، حاصل على الدكتوراه في مقارنة الأديان، ومتخصص في البحث والمحاضرة والتأليف في الأديان والمذاهب الفكرية المعاصرة.

له الكثير من الكتب والمحاضرات، ومن مؤلفاته:

- براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم.
- شبهات تاريخية حول القرآن الكريم: عرض ونقد.
- العلموية: الأدلجة الإلحادية للعلم في الميزان.
- مشكلة الشر ووجود الله: الرد على أبرز شبهات الملاحدة.

(*) بكالوريوس إرشاد وتوجيه نفسي، ناشطة وباحثة في قضايا المرأة.

» العالمانية طاعون العصر: كشف المصطلح وفضح الدلالة.

» الحداثيون العرب والعدوان على السنة النبوية.

عرض الكتاب:

يتكون الكتاب من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

يفتتح المؤلف الكتاب ببيان مقصده، وهو دراسة ما يعرف بـ "النسوية الإسلامية"، التي ظهرت تيارًا يحاول التوفيق بين مفاهيم النسوية الغربية والإسلام، مع التركيز على التيارات التي ظهرت ضمن العالم الإسلامي نفسه وليس النسويات المسلمات في الغرب.

ويؤكد أن هذا المشروع قائم على محاولة تقديم تأويلات جديدة للقرآن والسنة بما يتماشى مع الرؤية النسوية التي تستبطن -ولو جزئيًا- مقولات الحداثة الغربية، وهذا يؤدي إلى إشكالات منهجية ونتائج متضاربة تهدد أصالة النص الديني.

الفصل الأول: مفهوم "النسوية الإسلامية" وأهم أعلامها:

يذكر المؤلف أن المحاولات العلمية لتعريف «النسوية الإسلامية» قليلة، ويعلل ذلك بحداثة التيار وقلة المؤلفات فيه، ثم يوضح أن "النسوية الإسلامية" ليست تيارًا موحدًا، بل تضم توجهات متعددة، تشترك في الهدف العام وهو «رفع الظلم عن المرأة» كما تراه النسويات، من خلال إعادة قراءة النصوص الدينية من منظور نسوي.

ويستخلص تعريف "النسوية الإسلامية" – إجمالاً– بأنها: تيار فكري وحقوقي واجتماعي يقوم على إخضاع النصوص الشرعية، تأويلاً (النص القرآني)، وإثباتًا وردًّا وتأويلاً (النص الحديثي)، لآليات منهجية لا تراعي طبيعة النص المقدس، بعد إدانة الميراث العلمي السابق ليوافق قيم العصر -خاصة الليبرالية- طلبًا لتغيير وضعية المرأة في المنطقة، على تفاوت في مساحات التحريف بين أنصارها. فالمرجعية الإسلامية في القضايا النسوية عند هذا التيار شكلية في كثير من الأحيان.

> **المحاولات العلمية لتعريف «النسوية الإسلامية» قليلة، وسبب ذلك حداثة التيار وقلة المؤلفات فيه، ثم إنّ «النسوية الإسلامية» ليست تيارًا موحدًا، بل تضم توجهات متعددة، تشترك في الهدف العام وهو «رفع الظلم عن المرأة» -كما تراه النسويات- من خلال إعادة قراءة النصوص الدينية من منظور نسوي**

ومن هنا، يعرض المؤلف الأصول الكبرى التي تقوم عليها «النسوية الإسلامية»، وهي:

أولاً- الموقف من القرآن الكريم:

فقراءة "النسوية الإسلامية" للقرآن قائمة على مجموعة من القواعد، وهي:

- إعادة تأويل القرآن ليطابق المزاج الليبرالي أو اليساري.
- تجاوز اللفظ القرآني وسياقاته النصية إلى التاريخانية[1] و«المقاصدية»[2] كليًا أو جزئيًا.
- الاعتماد على آليات الأدب لإدراك المعنى أو صناعته من زاوية أنثوية تتحسس في إدانة التراث المتعلق بالمرأة التي لا تعدو أن تكون قراءات ذكورية انحيازية.
- اتهام التفاسير السابقة بالسطحية وأن المفسرين لم يستخدموا تفسير القرآن بالقرآن.
- النص القرآني مفتوح ومتحول وليس نصًا ثابتًا برسالة محكمة.
- أن القرآن يساوي بين الرجال والنساء في الإنسانية والكرامة، والهدف من هذا التقرير: التوصل بذلك لاحقًا إلى نفي التمايز الوظيفي في الأسرة والمجتمع، والتأكيد أن الآيات التي لا توافق المزاج الليبرالي لابد أن تفسر في ضوء الآيات المساوية.
- التأكيد على أن تفسير الآيات المتعلقة بالمرأة في القرآن متأثرٌ بصورة كبيرة بتقريرات الكتاب المقدس النصراني، خاصة سفر التكوين الذي

(١) التاريخانية: هي منهج تأويلي يفترض أن النصوص الدينية (كالقرآن والحديث) مرتبطة بسياقها التاريخي، وبالتالي فإن أحكامها ليست مطلقة أو أبدية، بل يجب إعادة فهمها وتطبيقها وفق الظروف الاجتماعية والثقافية المتغيرة.

(٢) المقاصدية -كما تُوظّف في الخطاب النسوي التأويلي- هي جعل مقاصد الشريعة (مثل العدل، والرحمة، والمصلحة) هي المرجع الأعلى، ولو أدى ذلك إلى تجاوز دلالة النصوص الظاهرة أو تعطيل بعض الأحكام إذا اعتُقد أنها لا تحقق المقصد في السياق المعاصر.

فيه قصة خلق آدم عليه السلام وحواء ورسائل بولس.

ثانيًا- الموقف من الحديث النبوي:

يذكر المؤلف أن الحديث النبوي تعرض إلى هجمة كبيرة من تيار "النسوية الإسلامية" باعتبار أن عامة الإشكاليات النصية مادتها حديثية، خاصة أن النص القرآني تغلب عليه المبادئ والأصول والقواعد، في حين يغلب التفصيل على الأحاديث. وتقوم هذه النظرة للحديث على ما يلي:

- اعتبار الحديث منتجًا سياسيًا غير أمين! كما صرحت بذلك فاطمة المرنيسي في كتابها «الحريم السياسي»، وهو أهم ما أُلِّف في الطعن في المرجعية الحديثية.
- انتهى البحث النظري للنسوية «الإسلامية» إلى ردّ الأحاديث كلّية أو الأخذ بالقليل منها؛ فعامة الأحاديث النبوية المجموعة في دواوين السنة محل شك وريبة في أصلها وصحتها وهي تستعمل خارج سياقها الأصلي، وبالتالي: تنحية السنّة والاكتفاء بالقرآن.
- الطعن في الأحاديث الصحيحة بالزعم بأنها متأثرة بتراث أهل الكتاب، الذي تسلل إلى تراث الدين الإسلامي يقوض تحرير المرأة التي كانت مملوكة وجعلها ندًا للرجل.
- اختار جمهور تيار "النسوية الإسلامية" منهج الانتقاء من الأحاديث خدمة للمشروع النسوي؛ فيأخذن أحاديث المساواة ويتركن الأحاديث الأخرى.

ثالثًا- الموقف من الصحابة رضي الله عنهم:

عامة النسويات لا يصرحن بموقفهن من الصحابة خشية صدمة القارئ، لكن المؤلف يستخلص موقفهن في النقاط التالية:

- يزعمن أنّ الصحابة لم يفهموا رسالة القرآن! وضياع الدين بظلم النساء أصله خيانة الصحابة للإسلام حيث تمكنت الثقافة الجاهلية من وعيهم وقلوبهم فأسسوا الفهم الذكوري الذي استلمه فقهاء المسلمين من بعدهم!
- يمثل عمر بن الخطاب رأس الفتنة عند أهم منظّرات "النسوية الإسلامية"؛ لأنه اغتال الروح القرآنية منذ عصر النبوة، كما يمثل أبو هريرة ﷺ أهم محرفي الخبر النبوي عندهن!

رابعًا- الموقف من الفقه:

موقف "النسوية الإسلامية" من الفقه يظهر في مجموعة أمور:

- تشويه التراث الفقهي من خلال انتقاء الأقوال الشاذة وتجميعها لتبدو صورة الفقه منكرة.
- بيان مخالفة التراث الفقهي للمزاج الحداثي والقوانين الدولية؛ لتجاوز هذا الفقه.
- الحديث عن تاريخانية الحكم الفقهي باعتباره مجرد اجتهاد ظرفي ينبع من بيئة الفقيه وثقافته والمزاج الذكوري، لذلك يميز النسويات بين «الإسلام القرآني» و«إسلام الفقهاء».
- الزعم بأنّ فقهاء الأمة سلبوا المرأة حقوقها عن عمد بقصد خبيث.
- التأكيد على أن المسلمات غافلات عن مكر الفقهاء بالمرأة.

النشأة التاريخية «للنسوية الإسلامية»:

يقدّم المؤلف في هذه الفقرة تأريخًا مركزًا لولادة ما يسمى بـ "النسوية الإسلامية"، ويبيّن أن هذه الحركة لم تنشأ من داخل التراث الإسلامي، وإنما كانت ثمرة تفاعل مع النسوية الغربية ضمن تسلسل تاريخي، يمرّ بثلاث مراحل رئيسة:

المرحلة الأولى: جذور فكرية من التفاعل مع النسوية الغربية (في النصف الثاني من القرن العشرين):

بدأ التفاعل مع بروز تيارات نسوية عالمية تسعى لإعادة قراءة الأديان من منظور جندري، وخصوصًا في الغرب المسيحي، فظهرت مثقفات مسلمات رأين في الخطاب النسوي أداة لتحرير المرأة، لكنهن اختلفن مع المركزية الغربية التي تهمّش الدين أو تُعاديه، وبدأت أولى المحاولات لإنتاج خطاب نسوي «متصالح مع الدين».

المرحلة الثانية: التبلور المؤسساتي (في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي):

في هذه المرحلة بدأت "النسوية الإسلامية" تتبلور مشروعًا مؤسساتيًا منظمًا، لا مواقف فردية.

وعرَضَ المؤلف لأهم أسماء النسويات المتبنّيات لهذا الفكر، وإنجازاتهن.

المرحلة الثالثة: الامتداد في المجال الأكاديمي والحقوقي:

منذ أوائل الألفية الثالثة بدأ المشروع يتغلغل في الجامعات ومراكز البحوث ومنظمات المجتمع المدني، وكثير من «النسويات الإسلاميات» أصبحن حاضرات في المؤتمرات الدولية، ويستندن إلى «شرعية دينية» مموّهة.

استفاد المشروع من انتشار الخطابات التي تنادي بـ «الإسلام المعتدل»، و«إصلاح الخطاب الديني»، و«حقوق الإنسان» بمعايير الأمم المتحدة.

> **منذ أوائل الألفية الثالثة بدأ المشروع يتغلغل في الجامعات ومراكز البحوث ومنظمات المجتمع المدني، وكثير من «النسويات الإسلاميات» أصبحن حاضرات في المؤتمرات الدولية، ويستندن إلى «شرعية دينية» مموّهة**

المسوغات المحلية لنشأة "النسوية الإسلامية":

يوضح المؤلف أنه ومن خلال بحثه تبين وجود رؤيتين شائعتين لتفسير هذه النشأة، وهما:

أولاً- الرؤية العَلمانية: تتبناها أصوات علمانية ترى أن "النسوية الإسلامية" هي نتاج طبيعي لظلم ديني تاريخي مارسه «الخطاب الديني الذكوري».

ووفقًا لهذه الرؤية:

١. النصوص الدينية نفسها ليست عادلة تجاه المرأة.

٢. لا يمكن إصلاح وضع المرأة إلا بفصل الدين عن المجال العام.

٣. "النسوية الإسلامية" ما هي إلا ردة فعل داخلية مترددة، تعكس صراع المرأة المؤمنة بين قناعتها الدينية وحاجتها للحرية والمساواة.

٤. هذه الرؤية لا تعوّل على الإصلاح الديني، بل تعتبره غير مجدٍ، وتدعو لمشروع مدني علماني.

تعليق المؤلف:

نماذج من تحريف النسوية الانسلاخية للأحكام الشرعية

- استحلال الشذوذ الجنسي
- تحريف معنى القوامة
- الطعن في أحكام الميراث
- التشكيك في بعض الأحاديث الثابتة
- تحريف مفهوم الطاعة الزوجية
- الإنكار العملي لأحكام الحجاب

هذه الرؤية تشكك في إمكان التوفيق بين الإسلام وما يعتبرونه العدالة الجندرية، وتعتبر الإسلام نفسه -كنص- جزءًا من المشكلة.

ثانيًا- الرؤية "النسوية الإسلامية": يزعم أنصارها أن هناك حوافز مختلفة لنشأة هذا التيار، تتمثل في أن "النسوية الإسلامية" تيار شرعي النسبة جذوره ممتدة في تربة الإسلام، ويصفون النبي عليه الصلاة والسلام بأنه النبي النسوي والزوج المرح، وكأن حسن التبعل علامة أيديولوجية للنسوية، كما يصفون السيدة عائشة بأنها قادت تيارًا نسويًا، في محاولة لتجذير العقيدة النسوية دون مراعاة للطبيعة الأيديولوجية للنسوية.

وفي القرن التاسع عشر الميلادي ظهرت بعض الكتابات التي تسعى إلى خدمة جوهر الفكرة النسوية مثل كتابات قاسم أمين في «المرأة الجديدة»، والكتاب الخطير الذي كتبه الطاهر الحداد المعروف باسم «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» فقد قدم جوهر النسوية الانسلاخية؛ موضحًا أن الإسلام لم يعطِ حكمًا جازمًا عن جوهر المرأة في ذاتها، وأن النصوص القرآنية لم تذكر ذلك صراحة، وأن الأحكام بُنيت على ضعف المرأة وتأخرها الاجتماعي، وبالتالي فهي أحكام ظرفية تسقط حجية الشريعة وتفتح الباب للفكر الحداثي.

ويهدف هذا التيار الوسط إلى إنتاج حركة تحافظ على المعتقدات الدينية بتفسيرات علمانية.

وقد ساهم تعديل قوانين الأحوال الشخصية في العالم الإسلامي في ظهور تيار تبريري يسعى إلى تسويق شرعية هذه القوانين المخالفة لنصوص الوحيين والإجماع الفقهي.

"النسوية الإسلامية" والإسلام:

بعد أن استعرض المؤلف نشأة "النسوية الإسلامية"، انتقل لمناقشة علاقتها بالإسلام من زاويتين:

» **الزاوية الأولى:** مخالفة النسوية للإسلام من زاوية علمانية. وقد انقسم الموقف العلماني من "النسوية الإسلامية" إلى مذهبين:

- الأول: يرحب بها باعتبارها إثراءً للفكر النسوي، وهذا الموقف نابع من هيمنة الرؤية النسبية في الفكر الغربي.
- الثاني: يرفضها لأنها رؤية هشة، مفككة الجوهر، خطرة في مقالاتها.

وقد وجّهت النسوية العَلمانية المعارضة «للنسوية الإسلامية» مجموعة نقود من منطلق رؤيتها المفاهيمية للإسلام والعلمانية، منها: أن "النسوية الإسلامية" تقوم على التلفيق بين رؤيتين متعارضتين في الأصول، في محاولة لصياغة نسوية متكلّفة.

» **الزاوية الثانية:** مخالفة "النسوية الإسلامية" للإسلام من زاوية إسلامية. ويناقش فيها المؤلف شرعية وجود نسوية إسلامية من خلال تسع نقاط رئيسة:

١. إشكالية المرجعية العليا: فـ «النسوية الإسلامية» تقدم النص واجهة لدعواها، ولكنها تحمل ولاءً لقيم المنظومة الليبرالية وروح الرأسمالية.

٢. الطعن في البيان القرآني: إذ تزعم القراءات المعاصرة أن القرآن غير مبين في قضايا النساء، مما يؤدي إلى إهدار حقوقهن بزعم أن النص غامض.

٣. الخلاف في ثبات دلالة النص: حيث تتعامل "النسوية الإسلامية" مع النص الديني من منطلق تاريخاني، مما يزعزع ثبات الأحكام.

٤. وهْم الحياد النسوي: حيث ينطلق هذا المنهج من نتيجة مسبقة يسعى لتحقيقها، وهي التصالح مع التصور الغربي.

٥. الانحراف عن غاية الوجود: فالمشروع النسوي يحمل نظرة نفعية مباشرة لرؤية المرأة وحقوقها، ويغفل البعد التعبدي والغائي.

٦. الامتحان بالتشريع: إذ ترى النسوية أن التكاليف الشرعية تقييد، وترفض مقولة أن النفوس تمتحن بالأحكام.

٧. استشكال ماهية الأنثى: فتيار «النسوية الإسلامية» يشكك في تعريف المرأة، معتبرًا أنها «بناء اجتماعي»، مما يُفقدها الثبات الديني أو البيولوجي، ويفتح الباب لتفكيك مفاهيم الأسرة والجنس والدين.

٨. النظرة إلى القوامة: حيث يُرفض مبدأ القوامة ويُستبدل بالاحترام المتبادل، ويُلغى سلطان الزوج في الأسرة.

٩. النظرة إلى تربية الأبناء: إذ تُعد تربية الأبناء شكلاً من أشكال «تعبيد المرأة»، ويُدعى إلى خروجها للعمل لنيل استقلاليتها.

البديل الشرعي للنسوية الإسلامية:

ينتقل المؤلف في هذا الموضع من الكتاب إلى بيان البديل الشرعي، موضحًا أن القول بشرعية وجود تيار نسوي داخل الإسلام أمر غير مستقيم؛ لأن "النسوية الإسلامية" لا تدعو للحفاظ على الحقوق الشرعية، بل إلى تغريب المرأة، وصناعة منظومة حقوق من داخل الرؤية الليبرالية الفردانية.

ويضيف أن "النسوية الإسلامية" ظاهرة مرَضية في التاريخ الإسلامي، وفتنة إذا أصابت مسلمة ملأت قلبها بغضًا للنصوص ورغبة في تمييع الثوابت، مع نظرة عدوانية للرجل، واتهامه بأنه مصدر كل ظلم تتعرض له المرأة، مما يهدد روح الجماعة ويُفسد المحبة الزوجية.

ويختم هذا الفصل بدعوةٍ إلى العودة إلى الشريعة من خلال:

١. رفع المظالم التي تخالف صريح الشريعة ولا تستند إلى تقريرات جماهير المفسرين والفقهاء ولا إلى حكم الشريعة ذاته.

٢. بيان أن عمل المرأة ليس واجبًا ولا محرمًا، بل هو مباح، على ألا يطغى على واجبات الأمومة، والأمور تقدر بقدرها، وأما جرّ المرأة إلى الوظائف جرًا فلا يأتي بخير.

٣. التأكيد أن الإسلام لا يعرف نسوية ولا ذكورية، بل يُقر بالاختلاف البيولوجي والنفسي، ويعطي كل جنس حقه.

٤. التأكيد على أن الدفاع عن الحقوق الشرعية لا يتم إلا بالانتصار للشريعة في مواجهة هيمنة العالمانية على القوانين والسياسات، عبر استعادة أحكام الإسلام التي تنظم حياة المرأة نظريًا وعمليًا.

إنّ القول بشرعية وجود تيار نسوي داخل الإسلام أمر غير مستقيم؛ لأن «النسوية الإسلامية» لا تدعو للحفاظ على الحقوق الشرعية، بل إلى تغريب المرأة، وصناعة منظومة حقوق من داخل الرؤية الليبرالية الفردانية

الفصل الثاني: النسوية الانسلاخية:

في هذا الفصل ينتقل المؤلف إلى تحليل تيار آخر من النسوية، هو النسوية الانسلاخية، والتي يُطلق عليها أيضًا «النسوية الطروادية»؛ لأنها تعمل على اختراق البيئة الإسلامية وسلبها حقيقتها، وتتميز النسوية الانسلاخية عن التيارات النسوية الأخرى وعن النسوية التلفيقية بأنها تنسب نفسها إلى الإسلام، وتناقش قضايا المرأة اعتمادًا على تأويل ألفاظ القرآن والتترس بمبادئه.

مؤكدًا على أن طابع العَلمنة في هذا التيار غير خافٍ، وأن رموزه يناضلن علنًا لمنع تطبيق الشريعة، ويدعين إلى القيم العلمانية دون تحفظ، بل ويُصرحن بانتمائهن العَالماني، ويؤكد المؤلف أن هذا التيار يساند الأنظمة العالمانية المتطرفة ويمتدحها ولو أزهقت هذه الأنظمة أرواح المسلمين بلا رحمة.

ثم يذكر المؤلف أن هذا التيار لا يتحرج من إنكار المعلوم من الدين بالضرورة تحت غطاءين، أولهما: حق الاجتهاد المفتوح، وثانيهما: واجب كشف اختطاف الدين من الفقه الذكوري. ويطالب باستعادة النص القرآني لقراءته قراءة تراعي الواقع الحالي لا عصر التنزيل، مع الاحتكام إلى الرؤية النسوية للقيم والقانون لا إلى آحاد الأحكام الشرعية في دلالاتها اللغوية الصرفة.

ثم يقسم المؤلف هذا التيار إلى قسمين:

نسوية طروادية واعية: تهدف لهدم الدين من الداخل، بنقضه بعناوين إسلامية ظاهرية.

نسوية طروادية غير واعية: تتبنى النتائج نفسها لكنها تظن أنها توفق بين الإسلام ومقتضيات الحداثة.

الأصول التصورية للنسوية الانسلاخية:

بعد ذلك، يعرض المؤلف الأصول التي يقوم عليها هذا التيار، ومنها:

١. الإيمان بعلو قيم العلمانية: وأما الاستشهاد بالآيات والأحاديث فللتوطين الآمن في بيئة مسلمة لا للتأصيل.

٢. رفع شعار الدين لتمرير الأجندة العلمانية بطريقة مموهة في مجتمع يستنكر فيه كثير من الناس معارضة الإسلام بفجاجة غير متخفية بالشعارات التجميلية.

٣. التحيز في الخطاب: فالخطاب الطروادي ينادي في حديثه عن المساواة بين الرجل والمرأة بجعل هذه المساواة في حقوق المرأة دون واجباتها، ووجوب تغيير القوانين لمنح المرأة الحقوق ذاتها التي للرجل دون الالتزام بالواجبات كالتجنيد الإجباري.

٤. تبني مقولات راديكالية متطرفة، كتجاوز مسألة المساواة في الكرامة الآدمية بين الرجل والمرأة إلى القول إن الذكور قرينة الخراب والدمار والفساد، وأن البشرية كانت أسعد في العصر الأمومي، وتأنيث ما لا علاقة له بالأنثى حتى في صفات الله.

٥. إنكار التمايز الجوهري بين الرجل والمرأة، والقول بأن الجندر خيار اجتماعي.

٦. إنكار الثوابت الدينية.

٧. ادعاء نهاية التاريخ؛ أي جعل التفسيرات الليبرالية الرأسمالية حقيقة مطلقة.

تحريف النسوية الانسلاخية للأحكام الشرعية:

يناقش المؤلف كيف قامت «النسوية الانسلاخية» بتحريف جملة من الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة، بحجة التحرر والمساواة، دون مراعاة لأصول الشريعة أو ضوابط التفسير.

ويعرض المؤلف نماذج تطبيقية لهذا التحريف، في العناوين التالية:

١- استحلال الشذوذ الجنسي:

فقد انتهى الأمر ببعض رموز النسوية الانسلاخية إلى استباحة ما هو معلوم الحرمة من الدين بالضرورة، وهو الشذوذ الجنسي؛ بدعوى أنّه جزء من الحرية الجنسية، ومن حقّ المرأة أن تختار ميولها الجنسية، وأن تكون «مثلية» إن شاءت، وهذا جزء من حقوقها الجندرية.

وتُستنكر النصوص التي تذم هذا السلوك، أو يُعاد تأويلها، مثل قصة قوم لوط، باعتبارها خطابًا تمييزيًّا ضدّ المختلفين جنسيًّا، أو قراءةً ذكوريةً للنص.

٢- تحريف معنى القوامة:

فالنسويات الانسلاخيات يحاولن إلغاء هذه القوامة باعتبارها «تمييزًا ضد المرأة»، ويذهب بعضهن إلى تفسير القوامة بأنها «الشراكة المتساوية»، أو حتى «ولاية المرأة على الرجل».

٣- الطعن في أحكام الميراث:

فالنسويات يعترضن على هذا التمييز العددي، ويعتبرنه «جورًا»، وبعضهن يدعين أن الآية نزلت في سياق معين لا يجب تعميمه.

٤- التشكيك في حديث (لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة):

تزعم النسويات أن الحديث «سياسي» لا ديني، أو أن روايته غير موثوقة.

٥- تحريف مفهوم الطاعة الزوجية:

فالنسويات يرفضن مبدأ طاعة المرأة لزوجها، ويرونه استعبادًا، وبعضهن يعتبرنه بقايا ثقافة جاهلية.

٦- الإنكار العملي لأحكام الحجاب:

يرى المؤلف أن كثيرًا من رموز النسوية الانسلاخية يطعنّ في الحجاب، إما بتأويل آياته، أو بادعاء أنه تقليد ثقافي وليس فريضة، وأن بعضهن يعتبرن الحجاب «رمزًا للهيمنة الذكورية».

> **النسويات الانسلاخيات يحاولن إلغاء القوامة باعتبارها «تمييزًا ضد المرأة»، ويذهب بعضهن إلى تفسير القوامة بأنها «الشراكة المتساوية»، أو حتى «ولاية المرأة على الرجل»**

الفصل الثالث: النسوية التلفيقية:

ينتقل المؤلف لتسليط الضوء على النسوية التلفيقية، وهو التيار الذي لا يرفض النصوص الإسلامية، ولكنه يُفرغها من محتواها من خلال إعادة التأويل.

تعريف النسوية التلفيقية:

فيعرفها المؤلف بأنها: محاولة للتوفيق بين الإسلام والنسوية الغربية، تقوم على أساس أن الإسلام دين عادل، لكن القراءات الذكورية للنصوص هي التي شوهته.

تسعى النسويات التلفيقيات إلى إعادة قراءة النصوص الشرعية بمنهجيات حديثة (مثل الهرمنيوطيقا والقراءة السياقية)، للوصول إلى نتائج أكثر انسجامًا مع المساواة الجندرية.

لكنها لا ترفض الإسلام أو تعلن الانسلاخ عنه، بل تحتفظ بالنص وتفرغه من دلالاته من خلال إعادة التأويل.

النسوية التلفيقية بين المحفزات والوعود:

يُقرّ المؤلف أن المشروع التلفيقي نشأ بدافع معالجة واقع ظالم للمرأة في بعض البيئات الإسلامية، لكنه يؤكد أن هذا الدافع المشروع لا يبرر الخلل المنهجي في المشروع، إذ إنه لا ينطلق من داخل الأصول الإسلامية، بل يستند إلى معايير مستوردة من الفكر النسوي الغربي.

ونتيجة لذلك، يحصل تفريغ للأحكام الشرعية من مضمونها دون إعلان القطيعة مع الدين. ويصف هذا المسار بأنه «إصلاح» يشبه النزع البطيء للسلطة من النصوص: لا يُهاجم الدين علنًا، لكنه يُفرّغ أحكامه باسم الإصلاح والمساواة.

الانتقادات الموجهة إلى النسوية التلفيقية:

يتناول المؤلف الانتقادات التي وُجِّهت للنسوية التلفيقية من جهتين:

١. من داخل النسوية نفسها.

٢. من داخل التيار الإسلامي.

ويُظهر من خلال هذا العرض أن المشروع التلفيقي يتعرض لانتقادات مزدوجة؛ لأنه يفشل في إرضاء أيٍّ من الطرفين.

انتقادات النسويات للنسوية التلفيقية:

يُظهر المؤلف أن النسويات الانسلاخيات والعلمانيات يرينَ في النسوية التلفيقية مشروعًا متناقضًا وهشًا، ومن أبرز انتقاداتهن:

» أن التلفيقيات يرفضن القطيعة مع النصوص الدينية، مما يُبقيهن في دائرة «الاستعباد الديني».

» أن استخدام النصوص في التبرير للمساواة يجعل المشروع مترددًا، يريد الحرية لكن تحت سقف السلطة الدينية.

» أن التلفيقية تُعيد إنتاج السلطة الأبوية بشكل غير مباشر؛ لأنها تظل وفية لمفهوم الشريعة والعبودية.

» أن المشروع التلفيقي يبدو وكأنه مجرد محاولة لتجميل الدين، لا تغييره فعليًا.

موقف المؤلف من هذه الانتقادات:

ينقل المؤلف هذه الانتقادات بنزاهة، ليُبرز أن التيار التلفيقي لا يحظى بثقة حتى داخل الحقل النسوي نفسه؛ لأنه لا يتبنى الحداثة بشكل صريح، ولا يتخلى عن الدين بشكل جذري.

الانتقادات الإسلامية للنسوية التلفيقية:

ومن جهة أخرى، يعرض المؤلف نقدًا شرعيًا وعلميًا للمشروع التلفيقي من داخل المرجعية الإسلامية، ومن أبرز هذه الانتقادات:

١. المنهج التأويلي المضطرب: إذ تُخضع النسويات التلفيقيات النصوص للواقع بدل العكس، ويتعاملن مع النص بوصفه مرنًا قابلاً لإعادة التشكيل دون ضوابط أصولية.

٢. المرجعية المتعددة والمجزأة: فلا يلتزمن بأصول الشريعة، بل يمزجن بين المفاهيم الدينية والنسوية الغربية، مما يجعل مشروعهن غير منسجم.

٣. الانفصال عن مقاصد الشريعة الكلية: حيث يركزن على «مصلحة المرأة» كما تُفهم حداثيًا، لا كما تُفهم شرعًا، ويتجاهلن أن التشريع يقوم على التكامل لا التماثل، وعلى التوازن لا على التمركز حول الفرد.

٤. غياب الضوابط العلمية في التعامل مع النص: حيث يستند مشروعهن إلى أدوات فلسفية غربية مثل الهرمنيوطيقا والتفكيك، دون مراعاة لقواعد اللغة والسياق.

تسعى النسويات التلفيقيات إلى إعادة قراءة النصوص الشرعية بمنهجيات حديثة (مثل الهرمنيوطيقا والقراءة السياقية)، للوصول إلى نتائج أكثر انسجامًا مع المساواة الجندرية

موقف المؤلف:

يرى أن النسوية التلفيقية تُزيّن المشروع النسوي بقشرة إسلامية، لكنها تقوّض النصوص من الداخل، وتفتح الباب لتحريف الشريعة باسم التجديد.

خلاصة المبحث من وجهة نظر المؤلف:

يختم المؤلف هذا الفصل بالتأكيد على أن النسوية التلفيقية مرفوضة من الطرفين:

فالحداثيون يعتبرونها خائنة للمرأة.

والإسلاميون يعتبرونها مهددة للشريعة.

فهي مشروع هشّ، قائم على التناقض، لا يملك مرجعية صلبة، ولا أدوات علمية منضبطة.

ويؤكد المؤلف أن الإصلاح لا يتم بالتلفيق، بل بالرجوع إلى النصوص بضوابطها، ومعالجة الخلل في الواقع لا في الوحي.

إسناد الأمر إلى أهله

مهند بويضاني

ما أكثر ما نرى من ظاهرة التدخل غير المسؤول من غير المختص؛ حيث يُبدي كثيرون آراء في الطب أو الدين أو التعليم أو الاقتصاد دون تثبت أو خلفية علمية، مكتفين بما سمعوا أو قرؤوا دون تمحيص أو تحقق. وهذه آفة معرفية خطيرة، تُضعف الثقة، وتُشوّه الحقائق، وقد تفضي إلى نتائج كارثية على الفرد والمجتمع.

إن التثبت من القول قبل إطلاقه، والتأكد من صحة المعلومة قبل نشرها أو تبنيها، هو من مقتضيات الأمانة الفكرية، وركيزة من ركائز العقل السليم، فمن تمام المسؤولية ألا يتحدث الإنسان في أمر إلا وهو به عليم.

ومن هنا، فإن إسناد الأمر إلى أهله، واحترام التخصص، وتوقير الخبرة، لا غنى عنها لضمان سلامة القرار وجودة الأداء، وهي ليست مجرد لياقات اجتماعية أو تنظيمات إدارية، بل هي جوهر العقلانية، وأساس العدل، ومعيار رُقيّ الأمم؛ فكما لا يُسلَّم المشرطُ لغير الطبيب، فكذلك لا يُستأمن القول والعمل في شؤون الأمة لغير المؤهلين. وفي التزام كلٍّ بدوره، والتزام الصمت فيما لا يُحسن: صلاحُ الحال، وسدادُ المسار، وسلامةُ المآل.

رسالة بلا مناصب... وكرامة بلا مقايضة

أنس حشيشو

عين الكرامة وأساس السّعي لتحقيقها: حضور ذاك اليوم الذي نستنشق فيه هواء الحرية في بلادنا.

في المقابل يكفي هذا فقط لأعود مواطنًا طبيعيًا لعالمي «عالم التعليم والتربية»، إلى مهنتي ورسالتي وشغفي وموطني دون أيّ مزاحمةٍ لمنصبٍ أو فكرةٍ استباقية بأحقيّة حصولي على كرسيٍّ لقاء رحلة نضالٍ أو حِملٍ ثوري!

لا أريد أن أستوفي حقي في دنيا الزوال؛ لأنه أغلى ثمنًا «مما طلعت عليه الشمس» ومن زاوية أخرى «وهي الأهم» هذا أقل واجبٍ يكون من مواطن ينتصر لقضايا أمته ويسعى لرفعِ الظلم وإحقاق العدل في جنبات بلاده ليحيى مجتمعه بعدل وكرامة.

عيشوا حياتكم وأعيدوا الذكريات لما أنتم عليه من مهنة ورسالة حملتموها تريدون المتابعة بها «شغفكم واهتماماتكم التي تؤمنون...» فكل التغير الذي حصل لنا وعلينا لابد أن نجعله خبرةً تراكميّةً لانطلاقة أجمل وأفضل دون أيّ استحقاق نطالب به كفاتورة نريد تحصيلها جرّاء تضحيةٍ أو ابتلاءٍ مرّت جنباتنا في ذكراها... (وذاك لا يتنافى مع السعي في أن تُوجد نفسك في المكان الصحيح وداخل مؤسسة تؤمن أنّك تنتمي لها وقادرٌ فيها أن تكون قيمة مضافة).

هل الطلاب مؤهلون لأول قرار مصيري؟

لينة درمش

اختيار الطريق الدراسي الذي نسلكه ويحدد شكل وطبيعة مستقبلنا ليس بالأمر السهل، خصوصًا أنه يأتي في مرحلة لا نملك فيها الخبرات الكافية لاتخاذ قرار مصيري بهذه الخطورة، فاتخاذ هذا القرار له علاقة بقناعاتنا عن أنفسنا، وبطموحاتنا المستقبلية، أما الاستشارة فقد تزيد الأمر تعقيدًا؛ لأنها تؤدي إلى ضخ كمية هائلة من المعلومات التي يصعب التعامل معها.

معارضة الأهالي لرغبات الطلاب لم تعد العائق الرئيس في تحديد الطريق، بل صارت مسائل مثل تكاليف الدراسة وحاجة سوق العمل للتخصص تأتي في البداية.

وفي النهاية يجد الطالب نفسه في ختام المرحلة الثانوية في مفترق طرق صعب، والخطوة التي يختارها ليس من السهل الرجوع عنها عند تغير القناعات أو الظروف في وقت لاحق.

لكن من الاكتشافات التي ينتبه لها الطالب في هذه اللحظة: أن سنوات الدراسة التأسيسية لم تكن كافية لتأهيله لهذا القرار المصيري، فهل العيب في المناهج؟ أم في طرق التعليم؟ أم في منظومة التعليم كلها؟

سؤال أطرحه بين يدي القارئ الكريم.

شبكات التواصل والحياة الأسرية: كيف نتوازن؟

يسري محمد

في عصر الشبكات الاجتماعية أصبحت التحديات المتعلقة بتحقيق التوازن بين الحياة الأسرية واستخدام التكنولوجيا من الأمور الجوهرية؛ إذ يمكن أن تؤثر هذه الشبكات بشكل عميق على العلاقات الأسرية، فقد تؤدي إلى انشغال الأفراد عن بعضهم البعض، وتقليص التفاعل العاطفي والاجتماعي بينهم. كما يمكن أن تسهم في نشر القيم السلبية والمشكلات الاجتماعية، وعلاوة على ذلك قد تؤدي إلى الإدمان والتأثير السلبي على الصحة النفسية للأفراد.

ينبغي على الأفراد وضع حدود واضحة لاستخدام الشبكات الاجتماعية، ويمكن أن تشمل هذه الحدود: تخصيص وقت معين للاستخدام، وتجنب استخدامها أثناء تناول الطعام أو قبل النوم. وينبغي على الأفراد تخصيص وقت للأسرة، والانخراط في أنشطة مشتركة تعزز روابط العلاقات الأسرية. يمكن أن تشمل هذه الأنشطة تناول الطعام معًا، وممارسة الرياضة، والقيام برحلات ترفيهية.

كما يمكن استغلالها بشكل إيجابي، من خلال التواصل مع الأهل والأصدقاء، والتعلم والتعليم. وتشمل هذه الاستخدامات الإيجابية: الانضمام إلى مجموعات دعم، ومتابعة صفحات تعليمية، والتواصل مع الأصدقاء والعائلة.

وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا

د.خير الله طالب

تروي كتب التفسير قصة رجل سرق، فسعى مع أصحابه في تبرئته عند النبي ﷺ، واتهام رجل بريء[1]، فجاء الوحي بالتنبيه والتصحيح والتعليم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، بما أراه الله وأوحاه إليه وعلّمه إياه، لا بما رأته نفسه أو مالت إليه أو اشتهاه المحبّون. ثم نهاه عمّا يُشيع الفساد في الأرض من الدفاع عن المخطئين الخائنين أنفسهم والمخاصمة عنهم: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، حتى لو كان خصمهم صاحب الحق يهوديًا أو مشركًا، فإنّ العدل هو الحق.

تتنوّع صور الخيانة؛ فتشمل ادعاء ما ليس للمرء، أو إنكار الحق الذي عليه. ويتجسّد ذلك في عالمنا اليوم في أنواع الغش في المعاملات والامتحانات والأبحاث، والزور في الشهادات، والارتشاء في الأعمال، وتقديم المصلحة الشخصية والعائلية والحزبية على المصلحة العامة.

ومما لا يخفى: المحاماة عن المجرمين والقتلة، والاستقواء بالعدو على الأهل والبلد، وتسريب المعلومات، والدلالة على مواطن الضعف، والتنازل عن الحقوق التاريخية العامة، ويشبهها: تأييد دعوات مشبوهة تقتات على التذمر من مشكلات طبيعية وأزمات مصطنعة.

ومن أدقّ صور الخيانة في لبوس الإصلاح: مشاحنة العاملين لأنّهم من غير جماعته أو مجموعته، والتضييق عليهم، ومزاحمتهم في أعمالهم وحقوقهم، وحرمان الناس من خبراتهم وخيرهم، وتشويه صورتهم، والتشكيك في نياتهم وغاياتهم.

أمّا المخاصمة عن تلك الخيانات وأصحابها، فتظهر في الاصطفاف معهم على طول الخط، ونصرة رأيهم وقولهم وموقفهم، بغضّ النظر عن دقة معلوماتهم وصواب تفكيرهم، مع التستر على غوايتهم، والمجادلة عن ادعاءاتهم. ثم تنتقل المخاصمة إلى مهاجمة المخالفين، دون تلمّس دوافعهم، أو الاطلاع على منجزاتهم وحيثيات مواقفهم وبراهين أقوالهم. ويسهل آنذاك استحلال أعراضهم وهتك أستارهم، والسعي في هدم أعمالهم لمجرّد أنّها أعمالهم، وصولاً إلى الاستقواء بالسلطة على إقصائهم والنيل منهم، ولو بلغ الأمر سجنهم أو تشريدهم أو بهتانهم ورميهم بما هم منه براء؛ بحجّة فعل الخير المزعوم الذي عليه الأصحاب والأحباب.

حين تعتاد النفوس الميلَ عن الحقّ شعرةً، قد يسهل عليها نصرة الباطل، وإن بلغ هدم البلاد وإفساد العباد، بينما هي تفرّغ طاقة العداء عندها على إخوة الإيمان شيطنة لهم وتزكية للنفوس!

تتعلّل تلك النفوس بعلل شتى تؤيّد بها موقفها السياسي أو الاجتماعي أو الدعوي أو الإداري أو الأسري... وتنصر به خصومتها الجائرة، فتغطي به بقايا فطرتها ونور الحق في داخلها، فتطمسه.

وما أودى بها إلى اختلال الميزان إلا نظرةٌ ماديةٌ استعظموا بها شأن الخلق، فتعلّقوا بهم وحسبوا حسابهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾، فصغر في قلوبهم شأن خالقهم: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

لا إفاقة من تلك الغفلة إلا بوزن الأمور بنظرة كلية إلى المصير الأخير: ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩]، بصيرة تأخذ بصاحبها إلى مغسلة التطهير: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١١٠ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١١ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٠-١١٢].

سياق طويل في ثلاثين آية من سورة النساء يبني حائطَ العدل في العلاقات والحكم على الآخرين، وينصب ميزان القسط في جزاء كل عامل بما عمل: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، فيقوّي لُحمة الصف الداخلي في مواجهة الكيد، ويحميه من التفكّك، ويكشف مؤامرات الشيطان وأساليب النفاق في إضلال المقسطين، عبر علاقات الصداقة، وشبكات المصالح، وأروقة المؤتمرات، وهوامش الاجتماعات، وخفايا المراسلات... مكر لا نجاة منه إلا بفضل الله على مَن استنار قلبه بالحق، فحكم به، وضحّى من أجله؛ استجابة لقول الحق: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

(١) قصة ابن أبيرق مروية في التفاسير، وأخرجها الترمذي (٣٠٣٦). أسانيدها ضعيفة، وحسنها بعضهم.

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com